# حڪي تنور

عمر سعيد



# حكي تنّور

عمر سعيد

اسطنبول 2020-2021

الطَّبْعـــــــــــــةُ الأولى

مارس 2021



لوحة الغلاف بريشة الفنان المبدع حسن حمام

تصميم الغلاف المهندس لؤي المرعبي

هاتف : 0096176683831

Email: Zorba.chebli@gmail.com








الإهداء :

إلى كلّ من تفوّق عليّ بالإملاء!

**المقدّمة**

التنّور عمَّرَ كثيراً، وكان لا بدّ له من الغياب.

كان أنانيّا في تكوّره! نعم.

فلم يحدث أن كان التنّور تنّورين. لذا كانت وجهة استعماله واحدة.

كان دائرياً في شكله! نعم

ذا اتجاهٍ واحدٍ في وظيفته! نعم

فلم تعد هناك بقايا تترسب في زواياه؛ يعلوها الغبار منتظرةً عودة حَانٍ ما؛ ليمسح بيديه ما علق عليه، وليعرف ما فاته من الوقت، فيخرجه إلى العلن، يتطلع عبره إلى آثار تجربة القفز فوق الزمن.

هل كان يفرغ بعد انتهاء القرويّين من استعماله؟

هل استبدل أم انتهى دورُه أم...؟

لنقرأ إذاً في كتاب "حكي تنّور ونستطلع الإجابات.

فقد تناول الروائي عمر سعيد مواضيعه التي ضمّنها إنتاجه الأدبيّ الجديد " حكي تنّور" ببصمة أسلوبيّة، مضمونيّة، مفصليّة وإبداعيّة.

مفصليّة؛ إذ إننا نرى ربطاً بين الموروث والحديث عبر المزج والخلق والرّبط، فهي ليست خياليّة كحكايا ألف ليلة وليلة، وليست تقليديّة كالكثير من الكتب التي تناولت الأدب الشعبي؛ سواء عبر الوصف أو القصص، وليست نقلاً عن أمثلة شعبية مستقاة من خبراتٍ، لم تعد تأثيراتها بمعظمها فاعلة في مجتمعاتنا المعاصرة، فلقد أتت حكاياته نتيجة بعد نظر الرّوائي عمر سعيد، وتفاعلاته مع خبرات مُعاشة يومية؛ إضافة إلى انعكاس معارفه التي استنبطها من شمول اطلاعه، ومقارباته للكثير من الثقافات في العالم.

مضمونية بمعنى حداثتها، فهي ليست واعظة، أو إرشادية، أو تقريرية، أو إيعازية، وليست سيرة ذاتية، أو سيرة غيرية، بل السيرتان معاً في مقاربة حكائية جميلة، تخلص في النهاية إلى إمعان في التفكر عند من يتناولها.

نجد فيها خصائص مجتمعية، وليست تنضوي تحت مسمى علم الاجتماع، فيها العمل بكل تقنياته الحديثة من دون بث لصفة العلم الجامدة، من ناحية أدوار الأسرة، فهي تشمل نواح كثيرة من دون أن تسمي الأسر بأسمائها، فتضيع الفائدة منه، أو يعلق بذهن القارئين الصاق تهم بهذه العائلة، أو تلك ممن تناوبوا على استعمال مساحة التنّور بما هي مخصصة لصنع الخبز الضروري لاستمرار الحياة، من ناحية الموقف النفسي؛ فهي توعز إلينا بالتمعّن في مواقف؛ تعرضنا لها كأفراد في مجتمعاتنا، وتأثيرها على تشكيل مستقبلنا المخفي خلف ادعاءاتنا وتحاليلنا.

إبداعية؛ بتناولها أخباراً قروية بسيطة في معاشها، ساذجة في بعض تفاصيلها، وقد أتت مؤثرة في حيواتنا الداخلية بفضل إطلاقها إلى العلن، بكل تلك العفويّة العصيّة على أي قلم عاديّ.

مما جعلها في صيغة خاصة؛ قد تلمّح إلى النهوض بالكتابة الشعبية في احترافية لافتة، وقابلة للدراسة والتحليل.

كتاب حكي تنّور جاذب للقراءة، باعث للأفكار، سلس للفهم، ممتع للمطالعة، مثير للمشاعر، محرك للمخيلة، و...
ذلك التنّور، أتراه امتلأ يوما ما؟

حكمت حسن

البِنّيه في 2021/2/14

# التنّور

" انثروبولوجيا نفسيّة اجتماعيّة، تتناول قضايا متعدّدة من زاوية يتوهّم الكاتب أنّها مختلفة "

التنّور بداية لمن لا يعرفه، كان عبارة عن غرفة من حجر العكش، مسقوفة بالتراب الأبيض ( الفِرس) المعجون بالقصلية وقش تبن البيادر، والمتراكم فوق أغصان الشبرق والبلان المحمول على عيدان السنديان والملّول.

في داخل الغرفة حفرة صخريّة لها شكل الإجاصة، جدرانها الداخليّة مطليّة بالاسمنت الأملس الناعم.

كانت أمهاتنا تملأ تلك الحفرة بالحطب، الذّي تشعله، وتتركه ليتجمّر، لتبدأ بعدها بالخبز.

ومن أدوات التنّور:

– المحواش وهو كناية عن عصا طويلة غير مستقيمة، تستخدم لتقليب الجمار أثناء الخبز.

– غطاء التنّور، والذي كان في الغالب نورج ببادر محطّم، يغلق فوّهة الحفرة، لئلاّ يسقط فيها طفل أو حيوان بعد انتهاء الخبز.

– الميزر وهو قماش من الكتّان البنّي النّاعم؛ يفرش فوقه طحين، تتوسّطه طبليّة خشبيّة لرقّ الأرغفة المعجونة. والتي يسمّى واحدها ( قرص عجين)، ويسمّى الصف الأول من الأرغفة داخل اللكن النّحاسي ( السّاف وجمعها سفوف) حسب القاموس اللفظي لقرانا الرّيفية.

– الكارة والتي كانت عبارة عن مخدّة قماشيّة دائريّة الشّكل، حجمها أوسع من الرّغيف، يشترط فيها اللّون الدّاكن، ليتناسب مع لون الشّحبار أو الشّحتار ( الصّفوة السّوداء التّي تتشّكل عن الدخان) العالق على جدران التنّور.

وقد كان لكلّ قرية عدّة تنانير، يُكنّى التنّور فيها بـ ( تنّور بيت بو فلان )

وعادة ما كان يترك التنّور بلا باب، ليلجأ إليه كلّ عابر غريب

خاصّة في ليالي الشتاء.

كان التنّور ملفى النّساء والأطفال، والعجائز، والعاطلين عن العمل سواء أن أضرمت ناره لخبز، أو لنيل قسط من الدّفء بعد انتهاء الخبز.

وهناك كان الجميع يتخلّص من القمل والصّيبان، ومن كل ما في صدره من حكايا ونميمة؛ لا يطيق كتمانها، دون أن يبحث أحد في العلاقة التي تربط التّخلص من كليهما عند التنور، لعل مرد ذلك إلى التناهي في الصّغر، والطبيعة الحشريّة لكلّ منها.

ومن هنا نشأ مصطلح ( حكي تنّور ) دلالة على عفويّة الجلسة، وعدم قصديّتها، وكثرة الاجتهاد، والارتجال، والتأليف الذي تنتشر فيه كلّ الحشرات الجسديّة، والنّفسية خلالها.

لذلك فإنّ كلّ " حكي تنّور " لا يؤخذ به، ولا يُعوّل عليه لأنه حكي حشراتٍ مجتمعيّة.

ولكم كان التنور بحكيه منشأ كثير من الضوابط، والعادات والقصص، والخبريات، والخرافات، والأساطير، واللت، والعجن.

وعلى ذكر ( اللت والعجن ) وبما أن العجن معروف، فإن اللت هو كسوة قرص العجين بالطحين، لئلا تلتصق الأقراص بعضها

بالبعض الآخر، ولا باللكن، ولا الغطاء الذي فوقها، ولا بالأكف أثناء الرّق، واللوحان.

واللّوحان هو ترقيص الرّغيف بعد رقّه على الأكفّ، ثم على زندي الخبازة، ليأخذ اتساعه الذي يستهلك سماكة العجين حد الشفافية. مع العلم أن خبز التنّور أسمك من خبز الصاج.

والتقريص كناية شعبية كثيراً ما تستخدم في مجتمعات حكي تنّور.

*****

## مجتمعات الطرة والنقشة

في المدرسة، في البيت، في المسجد، في اللقاءات الجماعية، يتفق الجميع – تربويون وآباء ومجتمع ورجال دين – على أهمية تعليم الطفل اتخاذ موقف من الظلم، وتحريمه، معتمدين في ذلك على تبيان مخاطر الظلم.

وعندما يبلغ التلميذ سن المرحلة الثانوية، ينقلب المعلم على نفسه أثناء شرحه قصيدة زهير بن أبي سلمى محرضاً الطالب على إعادة النظر في ما تعلمه عن الظلم من خلال البيت الشعري:

"ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم .. ومن لا يَظلم الناس يُظلمِ "

ليغالي المعلم في توضيح عظمة موقف زهير من الظلم في هذا البيت.

ثم يبدأ المجتمع في دعوة الشاب إلى تبني مفهوم الذأبنة، من خلال تكرار مقولة: إن لم تكن ذئبا، أكلتك الذئاب"

فتغدو المواقف التي وظفت في عقلية الطفولة البريئة عدة عمل الفرد في الجلسات التنظيرية في مجالس " حكي التنور "

ذلك لأن مثل هذه المجتمعات ليست تقصد البراءة بتاتاً، غير أنها ومن حيث لا تدري تنتهج تضحيل عقليّة الإنسان.

فما أن يشبَّ عن فتوته؛ حتى يكتشفَ أنه يعيش في مجتمع تافه المعايير التي يتبناها.

كما يعلمونه أن غزوات النبي مقدسة، غير أن معنى الغزو في اللغة يعني: النهب، والسلب والافتراء على الضعيف.

إنه مجتمع يؤمن بصدق نبيه، وصدق خليفته الصديق، ومواقف خليفته الفاروق المتفانية في نصرة الحق، غير أنه يؤمن أيضاً وفي الوقت ذاته بأن:

"الكذب ملح الرجال"

كما يؤمن بـ:

" اليد اللي ما فيك تعضها، بوسها، وادع عليها بالكسر"

كذلك يؤمن باحتقار حملة السلم بالعرض. أولئك الذين يستخدمون عقولهم لاتخاذ موقف مما يحصل.

مجتمع يتخذ الأمر وضده، ويتبعهما في آن واحد.

مثل هذا المجتمع لن يكون له غد، مهما حث السير، لأنه مجتمع كالعملة المعدنية بوجهيها الطرة والنقشة. لكنها مجرد فكة لا تتجاوز بقدرتها الشرائية ثمن العلكة.

*****

## حقيقة الجان في تنورنا القروي

لم أكن لأقتنع بالجان، ولا بسكنى الجان في التنور، على الرغم من دعم شيخ القرية أيامها لتلك الحكايا، لأني رأيت بعيني الجن وهو يدخل التنور.

لم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري، يوم شارطني أبي ذات ليلة على ربع ليرة في حال تجرأت على الذهاب إلى حانوت الساحة، لأحضر له علبة (تبغ فلت) تلك التي لا زلت أذكر شكلها الصندوقي بطبعته التي كانت بالخط الأحمر، ترفع بالتحذير عن الشركة المنتجة مسؤولية إصابة المدخنين بالسرطان.

وأستطيع القول أني منذ طفولتي كنت قليل الخوف، وهذا ما وطد علاقتي بالغربة، والإنسلاخ والاستقلال.

أثناء عودتي من الحانوت الذي وجدته مغلقاً، الأمر الذي اضطرني لطرق الباب على البائع الذي كان حانوته في زاوية من غرفته الوحيدة – التي كانت هي المطبخ وغرفة النوم والمعيشة – كانت السماء تمطر بغزارة وقد شارف الليل على انتصافه.

لمحت من البعيد شبحاً أبيض؛ يجري باتجاه التنور من جهة الشرق.

التصقت بالجدار، وقد استفاقت مخيلتي على كافة قصص السهيرة في بيتنا حول الجان، والشتاء، والليل الذي ابتلع كثيرين، وها أنا في قلب التجربة.

دخل الشبح التنور، وما هي إلا لحظات حتى أخذ ضوء يشق الظلمة بلمعاته المتكررة عند باب التنور.

وبينما أنا في صراع مع نفسي حول جدوى الجري، وبين البحث عن خطة للتواري، وقد بللني المطر، والطامة الكبرى ستحل عليّ إذا بلل المطر تبغ أبي، إذ بشبح أبيض آخر، يخرج من أحد البيوت المجاورة، ويتجه صوب التنور، وقد لفت انتباهي ميله إلى القصر.

اختفى الجنان في التنور، ورحت أتقدم بحذر قاتل، مشجعاً نفسي على التسلل، فلعلهما قد ناما.

اقتربت من زاوية التنور، وأنا أكاد لا أتنفس، فإذ بي أسمع صوتاً أنثوياً، يليه آخر ذكوري، وسط انفاس تتقطع محمومة.

وبهذ الإشارة قتلت في داخلي كل الخوف من الجن، لأقع على

حقيقة تلك الأقاصيص من قبل العشاق، وفتيان الليل، واللصوص، الذين روجوا لهذه القصص بهدف الاختلاء داخل تلك الأمكنة؛ بعيداً عن ظنون الناس بكل أمان وراحة بال.

غير أني ما عرفت ترجمة معاني الأصوات التي سمعتها ليلتها، إلا في سن البلوغ، بعد أن صارت التنانير تجتذبني إليها، إذا انتصف الليل.

لأكتشف معها أن الحقائق لا تكتشف من قبل القابعين في بيوتهم مع مخاوفهم، وأفكارهم الجامدة، وعقولهم الضيقة، ومعتقداتهم البالية.

إذ لا بد لاكتشتاف الحقائق من جرأة قد تكون مكلفة في الغالب.

جرأة تتجاوز المغامرة.

المغامرة التي مكنت كولومبس من اكتشاف أمريكا.

المغامرة التي دفعت ابن النفيس إلى نبش القبور، لتشريح جثثها واكتشاف الدورة الدموية.

تلك الجرأة التي حرمها الناس في المنطقة على أنفسهم، مرة بحجة الدين، وأخرى بحجة الأعراف، وغيرها بحجة القبيلة والعائلة، والعشيرة.

ففي البرازيل مثلا تقيم الأسرة احتفالاً للفتاة في حيضها الأول.

يكون الاحتفال بمثابة إعلان عن الفرح بأهلية هذا الكون الصغير (الفتاة) لإنتاج الحياة.

في الوقت الذي كنت أسمع فيه من بيئتي الإدانات، والانتقادات المقبحة لمثل هذا الاستقبال للدورة الشهرية عند الفتاة.

كنت أعمل في مدرسة إسلامية يديرها متمشيخ متدين مقرف بشكوكه وظنونه..

لمحت فتاة ترتكن زاوية مخفية من المدرسة، وتبكي.

تحدثت إليها، وطلبت منها أن ترافقني إلى المكتب لنكمل حديثنا، فرفضت، وبدت منهارة.

أدركت عندها معنى إصرارها على الاختفاء، لذا أرسلت إليها معلمة.

لم تكن لتعاني تلك الطالبة، لولا إدانات مجتمعها للدورة الشهرية.

فالدين يدينها، ويعتبرها نجاسة، والمجتمع يدينها بتكتمه عليها، وتحفظه عن الخوض فيها، والأسرة تدينها، إذ تفرض على الفتاة تجنب إشهار إفطارها في رمضان بحجة الحياء، والفتاة نفسها تدين دورتها؛ إن دخلت محلاً لشراء الفوطة الصحية، حين تحجم

عن طلبها، إذا كان البائع ذكراً.

فما هي الدورة الشهرية؟

هي إشعار بيولوجي طبيعي على أن الفتاة باتت مؤهلة للحمل والأمومة، وليس للعلاقة الجنسية.

ولنتخيل معاناتها وأسرتها فيما لو لم تحصل لها تلك النعمة.

غير أن المجتمع، وبفعل حكي التنور، يحول النعم إلى نقم، والعكس يفعله أيضاً.

فبدل أن تُهيأ الفتاة للدورة الشهرية، وتُمنح مشاعر الحب والطمأنة والرضى، تحاصر بكل المناخات السلبية التي تطبع لاوعيها بالخشية، والحذر، والقرف، والتجنب، والانقباض، والتكتم، الأمر الذي يُسبب للكثير من الفتيات؛ حتى الأمهات منهن آلام الحيض المزعجة.

وما كانت كل تلك الآلام والعوارض، لتكون، لولا حكي التنور الذي لا زالت ناره مشتعلة إلى يومنا هذا، ودخانه متصاعد في لاوعي الكثير من أبناء مجتمعاتنا المصرة على قدسية جهلها بما تجهل.

فتتبنى، وتلوك ما تسمع؛ دون نقاش، أو قياس، أو حكم.

وتفرضه بسلطة الغباء والكثرة، حتى يصبح حكماً.

ولطالما تساءلت عن عصرنة تنور قريتنا، ونقل طقوسه إلى صالونات الطبقة المخملية، التي لم تنفق على التغير في عقليتها وإن واحد بالمئة من ذاك الذي أنفقته على التغير في شكلها ومظهرها ومقتنياتها ومعمارها الذي أفرغها أكثر مما هي فارغة.

*****

## تنور القرية أوسع مما تخيلت

لم تكن نار التنور مخصصة للخبز وحده أيام الشتاء.

فأمهات الأسر الفقيرة كن يأتين قبل انتهاء الخبز بقليل، وقد حمل بعضهن دلاءً معدنية، والبعض الآخر طناجرَ قديمة.

يجلسن قرب الباب، إن ضاق المكان في الداخل.

ينتظرن فراغ الخبازة من عملها، وإخلائها المكان، ليملأن الدلاء والقدور بالرماد والجمار؛ التي يستخرجنها من قعر التنور بالرفش.

ثم يعدن بها إلى بيوتهن رحمة بصغارهن، الذين كانوا ينتظرونهن تحت اللحف والأغطية؛ اتقاءً لبرد الشتاء.

ولكم خلقت تلك الجمار من مشاحنات وخلافات؛ أدت إلى تورط الرجال فيها أحياناً.

شجارات تفصح عن عمق الفقر الذي طال العقول، والمشاعر، والألفاظ، والسلوكيات.

كنا نحن الصغار، نقف، نتفرج، ونتعلم فن الشتم والتقريع وشرشحة الذات.

ولم يكن أحد من الآباء أو الكبار، يحاول التدخل، أو ردعنا عن البقاء وسط ما يثار من مشاكل.

لذلك لم تغادر تنانير القرية أحداً منا؛ إلا من رحم ربي.

كنت أعتقد أنه من الحكمة والوعي؛ أن يقصد أهل قريتي مدناً مجاورة للتسوق، ولو لأجل حاجيات بسيطة، كانت تتوفر في دكاكين القرية.

لكني عندما كبرت، فهمت.. وعرفت أنها وجه من أوجه ادعاء الشطارة لدى أبناء القرى.

إذ لم يكن أكثرهم يقطع تلك المسافات الطويلة، ويتكبد عناءها؛ إلا بحثاً عن التوفير التافه، أو تعبيراً عن كراهيتنا لبعضنا البعض، نحن أبناء القرى.

وبقيت أتمعن في الأمر، حتى اكتشفت أن تنور القرية أوسع مما كنت أعتقد.

لذا بقينا جميعاً؛ نعلك المبررات نفسها، وكأننا لازلنا نقبع تحت أسقف تلك التنانير.

فصاحب المطعم عندنا، لا يأكل من طعام يعده في مطعمه، على الرغم من كثافة منشوراته الدعائية التي كانت تملأ الأزقة!

ومدير المدرسة ومعلمها لا يعلمان أولادهما في مدرسة يعملان فيها، بحجة أن الأبن إن أخذ وجهاً؛ تصعب تربيته.

وصاحب المشفى لا يتعالج في مشفاه.

كما أننا نصنع ملابس، لا نلبسها، بل نسوقها؛ لنبيعها لمن هم أفقر منا.

ونحن لا نقرأ ما نكتب، بل نتسابق على عناوين الكتب، والمقالات الغربية.

نحن نصنع أحذية نخجل من انتعالها، رغم أن البائع منا؛ يمزق أوتاره الصوتية في التسويق لها خلال أيام الأسواق الشعبية.

أعرف صاحب معمل شوكولا، لا يُضَيِّف منتوجات معمله خلال المناسبات في بيته، بل يلجأ إلى أصناف أكثر شهرة، وأغلى سعراً.

هل سمعتم عن صاحب مصنع بلاط؛ لم يضع قطعة واحدة من بلاط مصنعه في أرض بيته، بل جلبها من أفخر أنواع المنتجات الطليانية؟!

ولكم ظل السؤال عالقاً:

ترى ما هو مستقبل المجتمعات التي حالها مثل حالنا؟!

كيف لجماعة لا تعرف حب الوطن إلا في خطبها، وأغانيها ومقالات جرائدها، أن تبني وطناً؟!

من سيقنع مثل هذه الجماعة بالكف عن الادعاء؟!

فنحن جماعات تتحدث لساعات عن فوائد خبز التنور، ثم تعود لتضع على موائدها أرغفة الأفران الأتوماتيكة.

جماعات يتحدث فيها المدير أو المعلم بتفاخر لساعات عن تفانيه في عمله في مدرسة رسمية، لكنه يزين جدران صالونه بشهادات أبنائه من خريجي المدارس الخاصة.

نحن وعلى الدوام نمشي في اتجاه معاكس لما نقول.

نحن مجتمعات التنور، الذي ترفض ناره أن تخمد فينا، على الرغم من كل تلك المساعي الحثيثة لتأسيس خطاب؛ يتناسب مع مقاهي ستار بوكس، ودكتور كيف، ولمّات مكدونلز، وبيتزا هات.

مجتمعات تسعى الأسرة فيها لشراء أحدث الأجهزة الذكية لابنها، لكنها إن بكى خوفاً أثناء استخدامها، تهرع لمعالجته بطاسة الرعبة.

تعبىء ثلاجاتها بأرباع محتويات الصيدلية من الأدوية، وما أن يمرض طفلها، حتى تسارع إلى سكب رصاصة، أو تلاوة رقية.

كل ذلك مرده إلى أن حكي التنور؛ لا زال يشكل منصة رئيسة لكل نتاجاتنا الثقافية، والفكرية، والمعرفية.

ولا زال أجمل قصصنا ذلك الذي لا نشك بكذبه، وعدم جدواه، غير أننا نستعذب الغوص فيه.

*****

**أنتو حطب حور، ونحنا للحطب منشار"**

كان الإعداد لخبزة واحدة يستغرق أياماً.

يوم لخبزها، ويوم لتجفيفها، ويوم لطي الأرغفة وتخزينها.

لذلك كان أسبوع الخبز أسبوعاً صعباً على الأسرة كلها، وعلى الأمهات تحديداً.

كنا نحن الصغار نضطر لأكل الخبز المعفن مرغمين، قبل أن يسمح لنا بتناول رغيف من الخبز الطازج.

الأمر الذي جعلني أعد خطة لسرق عدة أرغفة، وتخبئتها خارج البيت، إذ كنت أضعها في كيس، أعلقه في أعلى أغصان التينة التي كانت تتوسط حاكورة بيتنا القديم.

كانت مكافأة المؤدب منا عروس السكر (رغيف يرش بماء وسكر).

كنت أستمتع بأحاديث أصدقاء الوالد الذين كانوا يجلسون في أماسي الشتاء، يتندرون بقصص عن الأيام الخوالي، فلا يذرون شخصاً يسلم من لسانهم.

يبالغون في ما يسردون، فنضحك، ونحفظ عن ظهر قلب ما يروون.

في أحد الأماسي، وفد إلينا رجل؛ يسأل عن أبي.

فقلت: إن سألني أبي عنك، ماذا أقول له؟!

فذكر لي اسمه، وبعفوية شهقت، وقلت له ضاحكاً: أنت بو جحشة؟!

امتعض الرجل، واسودّ وجهه، ثم رحل غاضباً.

وعندما أتى أبي قلت له ما حصل، فغضب مني، وصرخ في وجهي، ثم صفعني كفاً؛ أنامني تلك الليلة؛ وأنا أشهق كلما أفقت.

كبرت، وما نسيت ذلك الكف، ولا الرجل الذي تسبب لي به، ولا لقبه.

كبرت وعرفت كل الذين لم يسلموا من لسان أصدقاء أبي بألقابهم القبيحة.

وقد ماتوا جميعهم دون أن تموت ألقابهم .
لم تمت الألقاب، لأن مجتمعي كان يثبتها في سجلات الإرث الشفوي.

كنا، ولا زلنا مجتمعاً؛ يستمتع بإذلال بعضه البعض في الخفاء والعلن.

مجتمع ينقل للصغار أقبح أخبار الكبار وصفاتهم، ومواقفهم .

ثم ينتفض، ليؤدب الصغار إذا ما قلدوا الكبار.

ترى أين المتعة في التندر بعيوب الآخرين، وتعريف الصغار على الآخر من خلال قصص أجدادهم، أو طفولاتهم السيئة؟

فنحن لم نتعرف إلى شخص إلا من خلال تاريخه السيء الذي يقدمه أهلنا على أي شيء.

كيف تحتمل هكذا مجتمعات تعرية الآخرين بهذه البشاعة؟

لم يتركوا جَدّاً؛ إلا وعرفونا على أبشع مواقفه، وقصصه وإن حصلت منذ قرن.

ولا أباً إلا وأخبرونا عن أخطاء طفولته.

ينتظرون الطفل وإن في المهد ليخطىء، حتى يلقبوه لقباً، يبلغ أحفاده بعد قرون.

كانوا يفعلون ذلك بأكثر من صيغة.

مرة يفعلونها بصيغة السخرية، وأخرى بصيغة التحريض على كراهيته، وغيرها بصيغة التسلية.

حتى صارت تحضر في أذهاننا عيوبنا جميعاً قبل أي شيء آخر.

فأنا ابن أبي مخطة، وذاك ابن أبي جحشة، والآخر ابن أبي كلبة، ورابع ابن النمس، وخامس ابن الصل، وسادس ابن الجربان، وسابع ابن أبي خرا، وثمان ابن الخوثة، وتاسع ابن أم فسي، وعاشر ابن الشخاخة.

وتستمر التسميات لتطال الأموات والآحياء، ومن سيليهم من خلف صالح، وطالح.

تلك المجتمعات التي لا تعرف الصفح أو النسيان، أو المسامحة، كيف استمرت إلى هذه الأيام بكل هذا الدخان، والكراهية، والأمراض والعقد؟! لا أعرف.

مساكين من قضوا، لم يمت أحد منهم بريئًا، ولا نظيفاً، ولا نقياً في عين أحد.

ماتوا جميعهم ملطخين، ماتوا أفواجاً؛ تلطخ سمعة أفواج.

وكأن هذه المجتمعات لا تستقر؛ إلا إذا تمكنت من تحقير نفسها بشكل جماعي.

وكأن الجميع في نهاية المطاف قش تبن وحطب؛ وعلى التنور الالتهام، وعدم ترك أحد؛ إلا دخاناً، أو رماداً.

وإن أخطر ما ارتكبته تلك المجتمعات؛ أنها تركت للتنانير تربية الناشئة، والتأسيس لكل الممارسات التي تعيبنا جميعاً، إذ ليس فينا بريء منها.

والكل على قاعدة:

"إنتو حطب حور، ونحنا للحطب منشار"

*****

## اقتصاد الريف واقتصاد المدينة

كان للتنور ضواح، لا تقل عن وسطه فعلاً وتأثراً.

كاللمة حول خلقينة السلق ( سلق القمح )، واللمة في موسم مربى البندورة، والمشمش، وفرك الكشك، ومكدوس الباذنجان، كانت لمات حكي تنور بامتياز.

يتبادل الملتمون فيها الأخبار والاتهامات، وسوء الظن ونشر العرض، وغيرها من النوادر التي تطارد المتهم عقوداً، وأحياناً قروناً.

أذكر أن غالبية سكان قريتي، كانوا يدينون سكان المدينة في معظم قصصهم وأحاديثهم.

حتى أني صرت أشعر بالنفور من أي مديني؛ كنت ألمحه، كان رب العائلة القروي يشتري كل احتياجاته بالجملة، وليس بالمفرّق.
فيربي ( يقطع) ثوراً، لأجل مونة اللحمة، ويطبخ مربى البندورة بالأرطال، وتخبز زوجته لشهر، وهكذا.

ولكم رأيت في بيوت أهلنا خبزاً قد تعفن وأتلفوه، ومربى قد فسد،

ورموه، وقاورما قد قطنت( فسدت)، وأطعموها للكلاب والقطط .

كل هذا كان يحدث لأن ابن المدينة في قناعاتهم جوعان، وابن القرية وحده الشبعان.

ولكم سمعتهم يرددون: " فلاح مكتفي، سلطان مختفي "

دخلت المدينة بعمر خمسة عشر عام.

وعشت على السندويتش، والمونة الأسبوعية، ليس أكثر..

ولأني دخلتها وحدي، فقد كنت أعود من السوق بحبتي بندورة، وحبتي تفاح، وربطة خبز، وكيلو سكر، وهكذا.

أمس؛ أثناء عودتي من سوق الخضار بثلاث برتقالات وباذنجانتين، تذكرت تلك القصص، وقلت في نفسي:

– ليت والدي يرجع، ليرى ما أحمله.

ترى هل كان يعلم والدي الفرق بين اقتصاد المديني واقتصاد الريفي؟!

لقد اعتاد الريفي أن يكثر الشراء، لأنه كان يقطع الطريق إلى بيته سيراً على الأقدام، والكل يراقب ما يحمله، وبالتالي هو يريد أن يؤكد شبعه، إن كان ابن شبعان، واكتفاءه إن كان يشعر بالمنافسة، وبطره إن كان متهماً بالجوع.

وكان يظل مطارداً بفكرة أنه: "زمط بما اشتراه"، فقد لا يجد مالاً لشرائه غداً، أو قد يرتفع سعره.

وعليه فاقتصاد الريف حكي تنور، ينتج عن الغيرة والتأثر والتقليد.

يشتري ابن المدينة حاجته اليومية، لأن المدينة منحته الخصوصية، فلا شأن لمن حوله في مصروفه ومأكله ومشربه، أضف إليها أن الحاجات متوفره في المدينة بشكل يومي وطازجة، فالمدينة استمرار، وتواصل، وإنتاج دائم.

فيما لا زالت القرية موسم مؤونة، تتسبب به وفرة الصيف، تليه قطيعة شتوية، تتسبب بها شحة مداخيل الشتاء.

والوفرة في الريف وفرة بطن ليست أكثر، هذا إن أقرينا بها.

لكنها في المدينة وفرة خدمات، ووعي، ومتابعة لكل جديد محلياً وعالمياً، وهي وفرة ثقافة بكل وسائل توفير المعلومة والمعرفة لطالبها، ووفرة المشاركة في مشروع بناء المجتمع والدولة.

وهي وفرة وجوه وأزياء وأشكال وألوان، إنها وفرة تنوع واختلاف، صقلت الشخصية المدينية بكل ما منحتها من دماثة، وروية، وإقرار بشراكة سكان العمارة في كل شيء.

فيما لا زالت القرية عائلة تقرر وجه المجتمع السياسي فيها، وعائلة تقرر الزوجة، ومدرسة التلميذ، وجامعته، ووظيفته، ونوع عفش البيت، ولونه، والسيارة، والكثير من الأشياء غير المهمة.

ولا زالت القرية تتحدث بصوت عال جداً، وإن لم يسمعها أحد.
ولا زالت القرية لم تتقن وحتى اليوم مسألة جر المياه إلى بيوتها، ولا التعاون في حل مشكلة بسيطة.
لكن حكي التنور يؤكد على أصالة رغيفه، مقابل بَنْدَقَة رغيف المدينة، وعلى أن مربى البندورة البيتي المدعوس بأقدام الناس والرجال والأطفال أشهى من ذاك الذي تفرمه آلة الستانلس.

ويصر على أن ليلى بنت ضيعتنا أفضل بكثير من ليلى بنت شارع، ومحلة، وعمارة رقم كذا في المدينة.

فليلى الفلاحة لا حاجة لها بالجريدة، ولا باللغة، ولا بمجلات الموضة، ويكفي أن يبرز ثدياها، لتعلن خطوبتها، فالزواج في القرية مجرد استعداد جسدي، لا قيمة للاستعدادات العقلية والنفسية فيه، على قاعدة : "ما حدا خلق معلم"

وتكفيها جلسة واحدة على التنور، أو في تلك اللمات، لتزودها بكل أخبار أترابها، وزلاتهن وأسرارهن، وطرق الرد في المناكفات مع بيت الإحمى.

وسيظل اقتصاد المديني مدان بيننا في الريف، لأن المحاكمات العقلية ينتجها حكي التنور.

وحكي التنور موسوعة، تجدد نفسها بنفسها، وتكاد تفرض حضورها في أندية المدينة، وصالوناتها، ومقاهيها.

فقد استبدل كثير من أبناء الريف أراضيهم في القرية " ببلاطتين في عمارة " كما كان يقول أبي.

ودخلوا المدينة دون أن يخلعوا من رؤوسهم حكي التنور الذي فروا منه إليها.

*****

## السلم بالعرض

لم يكن التنور بحاجة الى سلم للصعود إلى سطحه، وحدله شتاء، لأنه كان منخفض السقف، يمكن للمحتفظ ببقايا من حَيْله؛ تسلق حيطه العكش، لبلوغ السطح.
كانت محدلة التنور تدور بيوت القرية صيفاً، خلال مناسبات الأعراس، واحتفاليات الشباب العفوية، وسط الساحة مع غروب الشمس من يوم لآخر.

كانت محدلة ثقيلة جداً، ويجزم أحكم حكماء مجتمعه، أنها ثاني أكبر محدلة في القرية، بعد محدلة بيت المختار.

لأنه حتى في معايير الحجارة، ينبغي أن تكون حجارة الحاكم أكبر من حجارة الشعب، وإن كانت لجدار مؤسسة عامة كالتنور.

كانت أزمة القرية تبدأ مع مطلع هطول الثلج كل شتاء، من أجل تحديد مكان تواجد المحدلة في القرية، والذي كان يحتاج أحياناً أياماً وأسابيع من السؤال، تنطلق رحلة تتبع مكانها من إجابة:
"آخر مرة شفتها عند بيت فلان"، إلى أجابة: "سمعتهم يقولون أن فلان نقلها إلى بيته في عرس ابنه"، وتستمر أياماً؛ حتى يبلغ

القوم مكان المحدلة.

ثم تبدأ أزمة جديدة جوهرها " كيفية الانتخاء لحمل المحدلة، وإعادتها إلى مكانها فوق سطح التنور.."

فالوقت شتاء، ولا فتيات يزغردن لحامليها عند عبورهم أزقة القرية، ولا أعراس تحشد فيها أوراك الصبايا وصدورهن؛ التي ترفع مستوى الأدريالين في الشباب، وتثير الحمية لفعل ذلك.. لذلك كانت طريق عودة المحدلة إلى سطح التنور أطول بكثير من طريق انتقالها الى الأعراس بداية كل صيف.

فللبدايات ألف أم وأب، ولطالما ظلت الخواتيم يتيمة.
وعلى الراغب بإعادتها أن يقوم بخيار من اثنين: إما أن يدحلها أمامه، كل المسافة التي تفصل بينها، وبين التنور في أزقة موحلة، وعرة، تضيق هنا، وتتسع هناك..
أو أن يحضر عربة، يرفعها، ويضعها في جوفها، لبتدأ مشقة دفع العربة إلى التنور، في قرية على سفح جبل.
وكما في كل مجتمع، دائما ودائما هناك من يحمل السلم بالعرض.
كانت الغالبية من سكان القرية تحمل السلم بالعرض، وتبدأ حلقات النقاش والجدل سعياً لإيجاد حلول وطروحات، نادراً ما

تكون واقعية، ولكم خرجت توصيات، تظل بكل تفاصيلها سلم جلسات ليالي الشتاء المحمول بالعرض.

وتطول المحادثات والمماحكات حول ضرورة إنهاء وضع المحدلة، والبت في أمرها.

فتؤسس لجان خدمة لذلك، وتُوكل إلى اللجنة مهام إعارتها، وإعادتها، ومتابعة حاجيات المحدلة، ثم تفشل اللجنة مع نهاية كل شتاء، لأن أحداً رمى المحدلة عن سطح التنور وحملها، لا شوراً ولا دستوراً (واللجن ليست خيال صحرة). وهنا يحضرني تساؤل حول سبب استخدام كلمة دستور بمعنى ( أستأذن ) في لفظنا الشعبي، دون أن أفهم التعليل.

ويؤجل الكلام حول انتقال المحدلة إلى بداية الشتاء التالي، لتقوم لجنة جديدة، وتكون أولى مهامها محاسبة اللجنة القديمة، التي يبرر أبرز عقلائها التقصير بأنهم: "ما حبوا يحملوا السلم بالعرض"

والسلم في مجتمعات حكي تنور لا يحمل إلا بالعرض.

لأنه وفي الأساس، لا يوجد ولو سلم واحد، يحمل بالطول في تلك المجتمعات.. فكل سلالمنا قد صممت لتحمل بالعرض.

ولشدة ما حملنا سلالمنا بالعرض، بات منطقنا يقضي بان حمل السلم بالطول هو خطأ علمي وجودي، لأن واقعنا قد صنعته

إقامة هكذا موروثات في عقولنا بالعرض ولفترات طويلة جداً وجداً.

فكل ما يطيل الإقامة فينا، يصبح منهجاً وقاعدة وعقيدة ترثها الأجيال، وتقدسها على عللها، ليصبح الخروج عليها خروجاً على السماء.

لذلك أنا من المؤمنين أن النظرية الصحيحة، لا تكفي صحتها، ولا دقتها مهما كانت صحيحة ودقيقة، لأن الخطورة تكمن في كيفية التطبيق.

وما دام التطبيق في مجتمعات حكي التنور ؛ يسبق ولادة النظرية، وبكثير من الوقت، سيظل سلمنا محمولاً بالعرض، وسيظل حامله؛ يتجول فيه، يهرّ كل ما يعترض مروره، محطماً ذات اليمين، وذات الشمال.

وسيكون كل محاول لتعديل السلم، هو الحمّال الجديد للسلم بالعرض، وما علينا إلا تحطيمه وسلمه الذي يحاول أن يوقظنا من جهلنا العميق.

*****

## تلميع الطناجر، وتساؤلات وجودية

النساء في قريتي كن يتحوقن بعد انتهاء الخبازة (المرأة التي تخبز لبيتها) حول فوهة التنور، وقد تعددت مقاصدهن، وإن ضاق مكان اجتماعهن.

وقد طمرت واحدة في ما تبقى من جمار بضع حبات بطاطا، وأخرى طمرت رأس شمندر، وثالثة لصقت على جدران التنور فطائر الكشك بالبطاطا، ورابعة أحضرت طناجرها، لتقوم بتلميعها بالصفوة ( الرماد الحار، فقد كان يستخدم لتلميع المواعين)

ليستمر حكي التنور كالعادة، فلا تُعرف بداياته، كما لا تعرف نهاياته.

فكثرة تداخل الحكايا والقصص، وأخبار القرية، والمحاكمات التي تشمل العلاقات العاطفية، والغرامية، وأخبار المغتربين، وجرائم القتل، وحوادث القضاء والقدر، وغيرها، تجعل الحكي مستمر من خَبزة إلى خَبزة.

وتوقفاً عند حوادث القضاء والقدر، تحضرني مجموعة تساؤلات وجودية؛ نبتت بذورها في جمجمتي تحت سقف تنور القرية،

لكنها رغم السفر، والغربة، وآلاف الكتب التي قرأتها، تمكنتْ من البقاء حاضرة في وعي، ولاوعي.

ذلك أن الخمسين سنة التي مشيتها من بيتنا في وسط القرية إلى عشرات عواصم العالم، ذهاباً وإياباً، وقد قطعت فيها ملايين الكيلومترات براً، وبحراً، وجواً، لم تكشف لي عن أي تغير عميق، حصل في مجتمعاتنا التي لا زال حكي التنور؛ يدور فيها حول: من هي المرأة الأشطر في تلميع طنجرتها!

وهي وإلى اليوم، وإن وقفت خلف مجلى غرانيت، تستخدم فيري وطنجرة تيفال، إلا أن قدميها؛ لا زالتا مطمورتين في رماد، ووحول تلك التنانير؛ التي نأبى أن نهدّها في عقولنا، لتظل تساؤلاتي الوجودية مشروعة، ما دام لم يصغ أحد إليها:

١ – لم لا يموت حكام الدول، وقادتها الكبار بحوادث سير، أو برصاصة طائشة، أو بسقوط عن مرتفع، أو غرقاً، أو بضربة سكين؟!

ولأعِدْ السؤال بصيغة أوضح وأدق:

لم لا يموت حكام الدول وقادتها الكبار قضاء وقدراً؟!

٢ – هل إن القضاء والقدر مرتبطان بالفوضى، والعجز، والخلل السلوكي، والتربية العنيفة؟!

٣ – أم إن القضاء والقدر حصيلة موروث فكري شعبي، راكمته

التبريرات الشعبوية لدى من يتخلون عن مسؤولياتهم، ولئلا يتحملوا ما صنعت أيديهم؟!

من وجهة نظري أنا: إن القضاء والقدر هما نتاج خطأ في لحظة معينة، إثر ظروف إهمال، أو تهور، أو استهتار، أو تعمد اللعب على حافة المغامرات والمخاطر.

ففي لعبة الروليت الروسية، يترك المغامر في بكرة التذخير طلقة واحدة، مقابل خمس حجر فارغة.

وهكذا سيكون احتمال انفجار الطلقة عند إدارة البكرة ١/٥، وفقاً لحسابات السذج في مجتمعاتنا، لكنها وبالمنطق العلمي تحتاج إلى عملية حسابية معقدة جداً.

واحتمالية انفجار الطلقة، أو تخطيها موقع الزناد، لن تثبت صحة نظرية القضاء والقدر، بل ستثبت أن الخطأ هو الذي تحكم بظرف ما، أسميناه في حكي تنورنا "قضاءً وقدراً".

إذن، إن لفظي قضاء وقدر هما مفتاحا إقرار بوجود أخطاء بشرية بنسبة عالية جداً في بيئات غير منضبطة، ترفض تحمل مسؤوليات أخطائها.

أمام بيئات قيادات السلطة والحكم في مجتمعاتنا، بنسبة حوادث وأخطاء، تؤثر على حياتهم، تكاد تكون صفراً، فلا مجال لحدوثها مهما كلف الثمن.

فتكثر نسب الموت قضاء، وقدراً في مجتمعات؛ ترفض تحمل وزر أعمالها، كما ترفض التعلم من أخطاء الأمس، وتصر على عدم التغير.

لتندر إلى مستوى الاستحالة في أماكن مكلفة وجداً، في حال حصولها.

فالأمن والتحكم بإدارة السلوك، والرقابة، والعيش، والتنقل، كل ذلك يجعل الحاكم؛ لا يموت قضاء وقدراً، بل يميت الشعب وهو ينتظر؛ أن يعييَه المرض والعمر.

مقابل موت آلاف بإهمال أسرهم لمسائل التيقظ، والتنبه لأطفالهم، وأبنائهم، الذين يلهون في أماكن؛ تجوبها سيارات مسرعة، وأماكن خطرة غير آمنة، ومحيط تتوفر فيه مواد سامة، أو في ملاعب التهور، وبأكثر من شكل.

في النهاية، إن القضاء، والقدر لا يمكن أن يكونا أمراً غيبياً هنا، ليكونا أمراً دنيوياً هناك.

والقاعدة العقلية تدحض كل ما أنتجته العقليات الشعبية الساذجة في الحديث:

"إعقل وتوكل" لمنطقية الشكل والمضمون والنتائج فيه.

ويبقى حكي التنور هو المسؤول الأول، والأخير عن بناء قواعد التفكير في مجتمعات؛ تسمم لأطفالها قضاء وقدراً.

مجتمعات تقتل صغيراً، قاد سيارة بسرعة، وتسبب بحادث قضاء وقدراً.

مجتمعات تردي بطلقة عشوائية نفساً؛ لا قيمة لها أمام أفراح مطلقي النار، وأتراحهم بلا محاسبة.

لتظل تلك الطنجرة التي لن ينتهي التباهي بتلميعها على لسان جاهلة؛ فضلت قفا طنجرتها على عقل طفلها.

فبدل أن تقرأ له، وتعلمه، تقضي أيامها تطبخ له، وتلمع طنجرتها وأخطاءه، ثم تغضب عليه لشدة تعبها.

وإذا مات، كان القضاء والقدر هما المسؤولان عن موته، واحتراق طبخة أمه، وفكس جلسات حكي تنورها.

وهكذا فإن كل هذا التردي من حولنا، يكون قد سببه القضاء والقدر.

*****

## لئلا تبلل الرحمةُ الرحمة

لم يكن زمن التنور مُضاءً بالكهرباء.

كان الدخان الأسود يعشش في جدرانه، فيزيد حلكتها حلكة.

ولست أجزم أن تلك الحلكة، لم تتسرب إلى لاوعينا المجتمعي، لذا دخلنا في تيه لا يطاق.

لكن جلسات التنور كانت لمة نار.

نار لطالما اشتهرت باسم فاكهة الشتاء، كما يسميها عجائز قرانا.

كانت أرض التنور تراباً، وعلى الرغم من ذلك كان رواده، يخلعون أحذيتهم – التي لم تكن أحذية – خارج بابه.

أما إذا كان المطر قد بللها، فإنهم كانوا يدنونها من أم سليمة (النار) وفق تسمية بعض كبار القرية، بغية أن تجف.

لم يكن مجتمع التنور مجتمعاً صناعياً، كان مجتمع حكايا، وأساطير مخيلات عاجزة عن كل شيء، إلا عن التوهم، والكلام.

فإذا ما تمحص المتتبع للمجتمعات الصناعية القديمة، لأدرك الفرق.

إلا بفضل العرب – كما تقول حكايا التنور– تنعم بالطرقات المعبدة، وقنوات الصرف الصحي قبل الميلاد بقرون، والموروثات الرومانية تشهد على ذلك، كالحمامات في تونس.
فإن مجتمعاتنا لا تزال تغوص في طين المستنقعات ووحول الطرقات، ذلك بسبب ما يسمى "غياب المواطنة".
ولو سألت جَدَّيَّ اللذين لم أعاصر أياً منهما عن المواطنة، لردوا:
" إن الحل يا جدي في تقوى الله "
وهنا تحضرني قصة حافلة الركاب التي تعطلت في يوم ماطر.
وقد كان ضمن ركابها رجل دين، وميكانيكي.
سارع رجل الدين السائق بالكلام، وأخذ يلح عليه، ليسمي الله، وأن ينقر المفتاح، وبإذن الله ستعمل السيارة.
لكن السائق رد: أخشى أن تفرغ بطاريتها من الطاقة، وندخل في مشكلة أكبر.
فاستنكر رجل الدين كلام السائق، وأصر عليه في ما يطلب: وكيف نخشى مع الله شيئاً.
ولبساطة السائق؛ فعل ما طلبه منه رجل الدين، حتى بلغ النتيجة التي خمنها.

تدخل الميكانيكي، وطلب من السائق أن يفتح غطاء المحرك، ثم نزل، يلقي نظرة على المحرك.

قام الميكانيكي بتنظيف بعض أسلاك البواجي، والمجموعة الكهربائية التي تبللت بفعل الماء.

ثم صعد السيارة وقد بلله المطر، وقال للسائق: لم يبق أمامنا إلا حل واحد.

فرد السائق: أنجدنا به.

فأجاب: أن ينزل جميع الركاب لدفع الحافلة، فيما تقوم أنت بتعشيقها، إلى أن تشتغل.

طلب السائق من الركاب، أن ينزلوا لدفع السيارة، فنزل الجميع، إلا رجل الدين.

بقي في مقعده، لئلا يبلله المطر، فتبللُ الرحمةُ الرحمةَ.

وراح الميكانيكي يحث الركاب على الدفع بقوة، ويوعز للسائق بما عليه فعله، حتى دارت السيارة.

صعد الركاب السيارة، وسط هرج ومرج رجل الدين، الذي ظل يصر على أنه ما توقف عن الدعاء طوال فترة دفع الركاب للسيارة، وأنه لولا دعاءه لما اشتغلت، مهما فعلوا.

رد الميكانيكي: كان لا بد من تجفيف المجموعة الموصلة للكهرباء، لتقدح شرارة النار التي تولد اشتعال البنزين، وكان لا

بُدَّ من جهود الركاب الذين دفعوها، لتعويض نقص الطاقة الحاصل في البطارية.

امتعض رجل الدين، وسأل بحدة: وتلك النار من خالقها، أليس الله؟!

ثم راح يُشرِّح كلام الميكانيكي من هنا وهناك، يريد أن يبثبت للركاب، أن فيه تجديف على قدرة الخالق.

إن حالنا يشبه حال تلك الحافلة التي يحاول الميكانيكي إصلاح أعطالها، وسط تحريض منظري التنانير التي لا تنتهي عليه.

لطالما نتجت نظريات إدارة المجتمعات في قرانا عن خلوات التنانير، وجلساتها الدائرية حول فوهة أم سليمة.

تلك النار التي استورد الغرب لها الغاز والنفط من بلادنا، بعد أن مدد لها أنابيب لآلاف الكيلومترات، ثم أدخلها إلى بيت كل مواطن نوراً، وماءً حاراً للتدفئة، وآليات تمخر باطن الأرض، وظهرها وجوها، لتصل به إلى جهته التي يقصدها.

في الوقت الذي لا زلنا نعاني من الظلام، دون أن نتوقف عن التهديد بسعيرها وزمهريرها وقمطريرها العقول، لا لشيء إلا لحمل الفرد على الدخول في الآخرة، وهو لم يدخل الأولى بعد؛ رغم مرور أكثر من أربعمئة وألف سنة على انطلاقة مسيرته.

مدعين أن ذلك الدخول سيحقق فينا المواطنة. دون أن نقتنع ولو

لمرة واحدة أن المواطنة علم، وفعل وإدارة مقدرات، وخدمات تنتج سلوكاً.

وأن المواطنة يستحيل أن تكون مجرد حكي تنور، كالذي نقوله :

" هم أخذوا ما عنا، وطبقوه؛ فتقدموا، وأعطونا ما عندهم، وطبقناه فتخلفنا "

فالإنسان يستحيل أن يطبق ما ليس يخرج من روحه، وعقله وخبراته.

وهم قد آمنوا بالعلم، ونحن لا زلنا نتوضأ بماء نجمعه من مزراب التنور، ونكسر سم برده بناره الخالدة.

*****

**"كنت بدي احكي، بس خفت يفهموني غلط"**

اعتاد أهل التنور على لقاءات تقطيع الفراغ، والتي يكون سيدها اللا شيء، فلا هدف، ولا برنامج عمل، ولا استنتاجات، ولا توصيات، تصدر عن لقاءات التنور.

لقاءات يظل اللت ( كلمة تعني في الأساس طلي رغيف العجين بالطحين تجنباً لالتصاقه بسواه " ويقصد بها هنا علك الكلام واجتراره)

والعجن فيها سيد الحضور.

واللت والعجن عبارتان تستخدمان لوصف كثرة الثرثة، والدوران حول فكرة واحدة لا غير.

فيستذكر المتحلقون حول فوهة التنور الدافيء كل شاردة وواردة، حصلت في القرية وإن منذ قرن..

وما الذي يشغلهم عن ذلك، وليس وراءهم غير قرض الوقت في تناول أخبار بعضهم البعض وبالسوء، والتأويلات المرتبطة بتراكمات نفسية سببها تنافس العائلة والقبيلةّ؟!

وانسجاماً مع الشَّرطية، و كنتيجة لانفعال البعض في المواقف التي تتطلب حضوراً صريحاً، وصوتا جلياً، يعيش بعض المتحلقين اللحظة، فتتواصل رغبة استعادة الماضي، والنوادر، وتصبح الأحداث كما لو أنها تحصل للتو، فتحضر عبارة " ليش ما قلت له كذا" ليجيب الآخر: " راحت عن بالي"، وينفعل آخر، ليقول: " قلّ له كذا وكذا، أكيد ما قلت له؛ ما بتعرفوا تحكوا " إلى أن تصدر أخطر التّصريحات التّي هي محور مقالتنا:

–أنا كنت بدي قول، وقول، وقول، بس خفت يسيؤوا فهمي، وأنا ما بحب زعل حدا مني!

لتسقط قيمة الكلام الأخير كله.

فالحذر والخشية من سوء الفهم، ما هي إلا مجرد حجة للهروب من النتائج، لأنها في الأصل فرار من القول صراحة، ليس أقل.

وعلى رغم ادعاء مجتمعات التنور مناصرتها للحق، وادعاءها تبني العدالة، ورغم تشدقها وفي كل وقت بمقولة " أعظم الجهاد كلمة حق في وجه سلطان جائر"

إلا أنها هي النموذج الأوضح لمجتمعات عبيد السلطان الجائر، التي تستبدل الجهاد في وجهه بالجلوس إلى بابه، وقد مدت أكفها استجداء!

فالتنور لا ينتج ذاتاً مؤكدة، لأنه مليء بالحكي الفارغ.
والذي هو ليس أكثر من اجترار لما يخشى الكثيرون قوله في اللحظة المناسبة، والموقع الصحيح..
لذلك يقولون كتعويض عن تراكمات العجز، والخوف في حلقاتهم الآمنة حول التنور، لأنها أكثر المناسبات التي تعفي المتكلم من مسؤوليته عن كلامهم، فالحكي " حكي تنور "
لتصبح العبارة الشهيرة:
"كنت بدي، إحكي، بس خفت يفهموني غلط"
والمهم في مجالس حكي التنور هي النوايا، لأن القيمة الأولى للنوايا، وما دام الباقي خبراً لكان، فليقل الجميع كل ما في نواياهم قوله، طالما لن يليَ القولَ فعلٌ يثمر تغييراً.
وكنتيجة لهذا الواقع النفس اجتماعي، تكثفت مواقف الخشية من إساءة الفهم، وصار كل مقال يساء فهمه.
ولشدة اتساع دائرة الخشية من إساءة الفهم، صار الجميع يعتقد أنه يفهم، ويربي أبناءه على ألّا يقولوا ما في نيتهم من قول ..
الأمر الذي جعل أغلب الفهم في مجتمعات التنور مجاملات وكذب ومحاباة، وحكي تنور.
ولغياب الذات المؤكدة في مجتمع التنور مساوىء أكبر بكثير من خشية القول، فالذات غير المؤكدة تسترخص نفسها، ويصبح

معها وجه المرء كمؤخرته، لا فرق بينهما، لذا انتشرت شهادة الزور والكذب والوسائلية على قاعدة:

"إذا كان لك عند الكلب مصلحة؛ قل له: يا سيدي"

لتصبح في مجتمعات حكي التنور الذات المؤكدة كريهة، تستفز الجميع، وتسبب النفور والاشمئزاز، ذلك لأنها ذات تستطيع أن تقول، ولا تخشى، وتفعل ولا تنتظر، وتبادر، ولا تتجنب.

ولأن بذار الذات المؤكدة هو النضج، والنضج ينتج عن عمق المعرفة، وعمق المعرفة تعززه كثرة التجارب، لذا تندر في مجتمعات حكي التنور نماذج الأفراد المدركين لدورهم في الحياة.

لأن تلك المجتمعات تتجنب المعرفة عن تعمد وإصرار، ولا تدخر لمحاربتها سبيلا.

لأنها تشترط الهوية المسبقة للمعرفة، والتي يجب أن تكون محصنة بموروث مقدس؛ بغض النظر عن صلاحيته، أو عدمها.

لتكثر فيه وبوفرة نماذج الأفراد الذين يدعون خشية القول، ويفضلون الصمت على أن يُسَاءَ فهمهم.

ليَستحِق السؤال الملح:

وبالتالي من سيُصحح للمدعي خطأَه، ويقمعُ تبجحَه، ويحدُّ من سطوته؟!

*****

## "فاقد الشيء لا يعطيه"

لم يَجْمَع التنور إلا العاطلين عن العمل صيفاً شتاءً، أولئك الذين يرسمون الأوهامَ بدقة وتفاصيل، تتخطى التوقعات، فيصدّقون ما يرسمونه، إلى أن يغرسوه في لاوعيهم، فتتحول أوهامُهم إلى سجون، جعلتْ الكثير منهم يقضي حياتَه داخل أبعاد تنور، ويرى العالم كلَّه عبارة عن تنور.

وتطول جلسات التخطيط والتأليف، ليصل الواحد منهم إلى كل أمانيه، ويحقق أحلامه، فرائحة الخبز ودفء النار؛ يغريان بالقعود ثم التحدث والتحدث، ولا شيء أكثر.

كانوا يلوكون قصص عنترة، وأبي زيد الهلالي، وتبع، وجساس، وغيرها كل شتاء، فيضيفون إليها خيالاً، لا يليق بخيالها، ويغيرون الجغرافيا، والمواقف، والأمكنة، التواريخ.

ومن يبالي، أو يهتم؟!

طالما ليس هناك من يحاسب.

والمحاسب هنا هو النقد، والمحاكمة، والتحقق الغائب عن الذهنية غياباً؛ يمنحها استرخاء يتبلد فيه التأليف والتوظيف، فما من شيء يشكل لها تحد.

وما دامت المراجعات مفقودة، والمساءلات غائبة، فما الضير من أن تسير الحكايا عكس ما ينبغي، وتخالف الحقائق، والتواريخ والقيم!

فعنترة الذي كان يتغنى بعفته في بيته الشعري الشهير.

"وأغض طرفي إن بدت لي جارتي / حتى يواري جارتي مأواها"

لم يكن عنترة نفسه في حكايا التنور، وذلك تماشيا مع الذهنية التي توظف المواد الفكرية لصالح أهواء جلساء الخبز والنار والبطالة.

فقد كان عنترةُ التنور ملهمَ المتجمعين جنسياً، ومحرضهم على الغزو، والفتك والعنف والقسوة.

وكمْ تخيلت في طفولتي بولة عنترة وهم يتجادلون حول طولها لساعات، فمنهم من كان يقول: أنها كانت تشكل قوساً يمر من تحته جمل، ومنهم من قال: أنها كانت تملأ جرة، وتزيد.

ومنهم من روى: أنها كانت توقظ كل نائمي الحي، ومنهم من تحدث عن أن المتتبعين كانوا يستدلون على عنترة، بتتبع آثار حفر بولته في الطريق، لشدة عمقها.

ولم يكن عنترة في التنور رمز القيم بتاتاً، بل كان رمز الفتك والفحولة، والقبح.

وحين كنت ألتقي عناتر قريتنا، كنت أعاني من خلل الصورتين اللتين تقع مخيلتي بينهما :

عنترة المبوال الطعان، الذي يكاد يرفع بعضوه الذكري صخرة، وعناتر قريتي هزيلي البنية، قصيري القامة، بسراويلهم التي تفشى البول على أفخاذها.

دون أن أجد من يجيبني عن كل تساؤلاتي حول هذه التناقضات.

كبرت، وقرأت، وقرأت، حتى اكتشفت أن عنترة كان شاعراً، وشاعراً قيمياً مرهفاً، اضطره عشقه للحرية إلى العنترة، واضطره عشقه لعبلة إلى الشعر، ويستحيل أن يكون العاشق الحر إلا قيمياً.

عندها عرفت معنى " فاقد الشيء لا يعطيه"

ففي مجتمع التنور الخاوي، لا يمكن للقاعد فيه أن يعطي الآخر مكانه.

لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

وقد كانت أصغر أحلام الأب أن يصبح ابنه طياراً، ولم يكن في القرية من يعرف كيف يصنع طيارة ورقية!

لذا ظلت غالبية الأجيال التالية تتسرب من المدارس، ذلك لأن أعظم أحلام أفرادها، لم تبلغ أبعد من حدود الحكي، والرغيف.

ففاقد الشيء لا يعطيه.

تسرب غالبية الأبناء من المدرسة، لأن عنترة خرج من تحت جلد الصبي الذي بلغ الخامسة عشر في الصف، وانتفض في وجه معلمه، وليثبت فحولته أمام عبلة؛ أرداه بعصاً.

ولأن فاقد الشيء لا يعطيه، تدخل الأب بعنترية، وبدل أن يُجبّر القضية؛ كسرها.

وتدخلت الأم بعنترية، وقبل أن تطير عبلة، ويدمر عنترها المراهق لأجل عينيها المدرسة على معلميها، خطبت له عبلة.

فتأسست أسرة على أنقاض تعليم لم يتعدَ تهجئة الكلمات.

وقام مجتمع واسع جداً على أكتاف أمّيّة الذين لا زالوا يؤمنون؛ وإلى اليوم أن أفضل الفتيات تلك التي "ما باس تمها إلا إمها" لتسقط كافة المعايير الأخرى التي يتطلبها بناء الأسرة من تكافوء، وتفاهم، وإدراك مسؤولية الإنجاب، وتربية وتعليم النشء، واقتصاد المنزل، وتبادل العلاقات الاجتماعية.

فتحولت مسيرة المجتمع كلها إلى جماع، وإنجاب، ومراكمة كتل لحمية صغيرة، تكبر عامودياً وأفقياً وفي كل مكان وزمان؛ بأجسادها التي لا زالت إلى اليوم مجرد كتل لحمية، ليس أكثر.

ذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ولما كانت النار أشد ما يأخذ، ولا يعطي، كان لا بد لجلسائها من تعلم حكمتها، فنشأت من تنانير القرى، وحكاياها أجيال تأخذ؛ ولا تعطي، وكيف لفاقد الشيء أن يعطيه.

*****

## جسد المرأة ليس ملكاً لها

لم يستطع التنور أن يصبح مؤسسة، رغم كل المفاهيم التي ثبتته كملك عام، وإن أقيم فوق ملك خاص.

لذلك بقي ككل الأملاك العامة، التي يهمل هذا الشرق صيانتها، أو الالتفات إليها مهما اشتدت حاجتها لذلك.

كان النساء يخبزن تحت سقفه الذي يدلف عليهن أمطار الشتاء الممزوجة بالطين الأصفر.

لكني لا زلت أذكر ذلك الكهل الذي كان يعتلي سطح التنور أيام الشتاء، إذا دخلت زوجته لتخبز.

وقد ارتدى معطفه الصوفي القديم، ولف رأسه بالسلوك الأسود (الشماغ)، ليظل يحدل السقف بالمحدلة إلى أن تنتهي زوجته من خبزها.

وهذا حال كل مجتمعات حكي التنور مع الأماكن العامة، التي لم تستطع أن تنشىء علاقة صحيحة مع التنور كتلك العلاقة التي نشأت بفعل القانون بين المكان العام والإنسان في الغرب .

فالطرقات، ومباني الوزارات، والمؤسسات المدنية، والمدارس، والساحات، والملاعب المشتركة، وعيون الماء وغيرها، كلها تعيش ذلك الاستهلاك والاهمال الذي يظهر على شكل رمي نفايات، وتخريب، وشعور عدائي واختلاسات، وسرقة محتويات.

فإلى اليوم لا أحد يعلم أين ذهبت حجارة تلك التنانير التي كانت في القرية.

عندما وصلت إنارة الشارع إلى قريتنا، لمحت مساء يومٍ شاباً عشرينياً يحطم بالحجارة إنارة الشارع.

سألته عن السبب، فنهرني!

أخبرت أبي بما حصل، وسألته عن دوافع ذلك الشاب!

ألقى أبي برأسه إلى الجدار، وقال موارباً:

– دعك منه؛ هذا بلا أخلاق.

غير أني عدت؛ لألمح ليلاً الشاب نفسه يدخل التنور، وبعد دقائق لحق به شخص آخر، قنّع وجهه، وأخفى جسده تحت معطف طويل، غير أن ما كان ينتعله بقدمه، لم يستطع أن يخفي جنسه كامرأة.

عدت إلى أبي أسأله عن سر لقائهما ليلاً هناك.

وكالعادة وارب أبي رده، وطالبني بتجاهل ما رأيت، لأن ذلك قد يسيء إلى سمعتنا كأسرة؛ بحجة أننا نشيع الأخبار الكاذبة عن الناس، وبيتنا من زجاج.

ثم نهرني، عندما اعترضت على أن بيتنا من زجاج، وقد كان من اسمنت.

لكني كنت أيام الدراسة، إن لم أفهم معلومة، أرفع إصبعي، وأصرح أني لم أفهم.

ولا أتوب عن تكرار التصريح، مهما تكثفت زخات الإهانات التي كان يرشقني بها المدرسون، وقد اتهموني بالتشاغل والغباء والفوضى.

وأذكر أني قد تعرضت بسبب تلك التصريحات للضرب عدة مرات.

وكان أكثر من معي في الصف، يلتزمون هز الرأس بالموافقة إذا سأل المعلم: أفهمتم؟!

ثم تأتي نتائج الامتحانات، وقد رسب الكثيرون من هزيزة الرؤوس، وقد حققتُ علامات مرتفعة.

ذلك التذاكي من زملاء الدراسة، كنت أقابله بتغاب، وهذا ما دفعني إلى قراءة أول كتاب سياسي في الصف الثاني متوسط، وقد كان حوالي ثمانمئة صفحة، وكان يشرح الأيديلوجيا.

وعلى الرغم من أني لم أفهم منه شيئاً، غير أني أتممته حتى آخر كلمة.

ومع الأسف أذكر أني سرقته، ومن هنا اكتسبت عادة سرقة الكتب، ولا زلت أتشبث بها.

واصلت القراءة؛ لأفهم الكثير مما أثاره في رأسي مجتمع التنور.

وواصل زملائي هز الرأس وادعاء الفهم.

ولأن الواقع يقضي بأفضلية هزيز الرأس على أغبياء الاستيعاب أمثالي، اختصر زملائي الكثير؛ لبلوغ ما كنت قد أطلت الطريق في بلوغه.

ولأن السؤال الذي لازمني طويلاً كان:

ما هي أسباب التقاء ذلك الشاب بتلك الفتاة ليلاً داخل التنور، بعد أن حطم إنارة الشارع؟!

أصريت على القراءة؛ والقراءة، لأكتشف الإجابة مبكراً.

فقد علمتني الكتب أن المرأة التي لا تملك جسدها، وحق التصرف به ليست حرة.

وأن المجتمعات التي تحتكر أجساد النساء، لن تبلغ التطور، ولو ناضلت لأجل ذلك ألف ألف عام.

وأن الأسرة التي تخاف على جسد الفتاة أكثر من عقلها أسرة تافهة.

لقد اكتشفت أن أباً يقرر مصير جسد ابنته بدلا منها؛ أبٌ أسيرٌ عاجزٌ.

وأن امرأة يغتصبها زوجها أثناء شعورها بالهزيمة في معركتها الجسدية لأجل من تحب جارية.

وأن مجتمعات تحرِّم على النساء حرّية التصرف بجسدها مجتمعات استعباد..

وإن حصل ذلك تحت ملاءة الدين والعادات والقيم الواهية.

ذلك لأن أقسى ما أذل هذا الشرق هو إهماله تلك القاعدة الإنسانية بامتياز، والتي قالها الخليفة العادل عمر بن الخطاب:

"متى استعبدتم الناس؛ وقد ولدتهم أمهاتم أحراراً"

ولإن أعظم دوافع الوعي هي خشية الغباء.

وأشد آفات الجهل فتكاً هي الادعاء.

والمصيبة الكبرى إذا كان الادعاء هوية اجتماعية.

ولأن من كانوا معي من هزيزة رؤوس قد كبروا، وما تخلوا عن عادتهم في هز الرأس بالموافقة، ولأنهم قد صاروا عماد المجتمع، ولأنهم الأكثرية التي تقرر، وتنتخب؛ لا زالت المرأة لا تملك جسدها، ولا تملك بيتها، ولا تملك صوتها، ولا تملك وطنها.

ولأن الشيء الوحيد الذي تملكه المرأة هو فقط وفقط حكي التنور؛ لا زال مجتمعنا يؤمن بأن أعظم المراجع، والموسوعات هو حكي التنور، وإن بلغ عدد المؤلفات العقلية العلمية مليارات من العناوين.

*****

## ماذا وراء هذا الجدار؟

كنت أجلس إلى جانب المرحوم جدي، وكان يقص عليّ حكاياه مع تنانير القرية؛ رائحة خبزها، سحن الصبايا العالقات وجوههن في ذاكرته، الجان الذي صنعته مخيلاتهم في ليالي البرد الحالكة، والذي أخاف البعض منهم، ففضل المبيت في التنور على مواجهة خوفه.

لذلك سنكتشف جميعاً كم أن حكي التنور متجذر فينا.

تخيلوا معي أحبتي القراء:

أني أسكن بيتاً منعزلاً عن القرى، في غابة لا يعرف أحد الطريق إليه.

وتخيلوا أني علقت في جدار غرفة في بيتي إطاراً بلا صورة.

وأني كلما أنجبت طفلاً، أخبرته أن هذا الإطار كانت فيه صورة لجده الأكبر.

وأن جده كان وكان وكان. ..

وتخيلوني في كل صباح وكل مساء أركع أمام الإطار صامتاً،

أمارس حركات، أقدس فيها ذاك الجد، وأذرف الدمع على غياب صورته خشوعاً.

وأطلب من ذاك الإطار أن تطل منه علينا صورة الجد التي اختفت بسبب ذنوبي المتراكمة، ذات لحظة.

ويكبر أبنائي على ذلك السلوك وتلك الفكرة.

ثم أبدأ بعد يأسي باتهامهم جميعاً بالتقصير، وأحملهم مسؤولية تأخر إطلالة صورة الجد من الإطار، وأعلل ذلك بكثرة ذنوبهم تجاه الصورة، والإطار، وأشكك في إيمانهم بعودة الصورة، وأشكك في خشوعهم خلال الطقوس.

ثم تخيلوا ما سينتج عن ممارساتي في الأبناء؟

حتما، ستنتج عنها عقد متفاوتة عند أبنائي.

فقد ينطوي أحدهم على نفسه، زاهداً في حياته.

وقد يبدأ أحدهم بكيل التهم إلى إخوته، واتهامهم بالكفر بإطار صورة جدهم.

وقد يتفرغ أحدهم إلى البحث عن طريقة يستغل فيها أخوته ويأسهم.

وتخيلوا معي أنه وفجأة، تمكن أحد أبنائي من الهرب من المنزل، وقد بلغ قرية مجاورة، وراح يتخفى بين بيوتها، وأثناء استراق النظر من الشبابيك، يرى صوراً معلقة إلى جدران البيوت، بعضها فيها صور أجداد، وبعضها صور أطفال، وبعضها الآخر صور حيوانات، وأخرى صور غابات، وغيرها.

ثم يتمكن ذلك الابن من التنبه إلى أن إحدى الصور في إطارها، تشبه رجلاً يجلس تحتها يقرأ ويدخن، وينظر إلى صندوق أسود ضوئي صغير أثناء بثه صورة لشخص، تشبه صورة معلقة في الجدار.

وخمنوا ما الذي سيحصل داخل ذلك الابن في تلك اللحظات؟!

ثم تخيلوا معي أن الابن قد عاد إلى البيت؛ يقص ما رآه على إخوته.

وتخيلوا مواقف إخوته الاستنكارية من فعلة أخيهم، ومن تكذيب الحقيقة التي عاد بها، والتهم التي ستلصق به من تآمر، وعمالة، وتضليل، و...

إن صناعة الأوهام لا تنتج إلا أجيالاً تشبه أبناء تلك الأسرة التي لم تخرج من بيتها، واعتبرت أباها مصدر كل حق وفضيلة ونور، وكذبت كل ما لا يتفق مع مقاييس ذلك الأب.

وأجيالنا في المنطقة ضحايا، تلك الأوهام التي لم يخجل أباؤنا في صناعتها لنا، وإقناعنا بها، وعلى مدى قرون.

وأجيال اليوم هي ذلك الابن الذي فر إلى تلك القرية، والتي هي عالم التواصل الذي نحن داخله، والتي ولدت فيه كل تلك التساؤلات والتغيرات والشكوك، ووضعته أمام أقسى المواجهات.

لتتكشف الانتصارات الوهمية، والهزائم البشعة، والتزوير الوقح للتاريخ.

نحن في زمن ما عاد يحتمل العالم فيه إطالة العيش داخل تنور جدي، وإعادة إنتاج القصص نفسها.

مهما بلغت حالة ذلك التنور في وجدان، وذاكرة أجدادنا، وذاكرتنا عبر مئات السنين.

فحركة الزمن أمامية، ولم تسجل وعبر كل ما قطعته لحظة واحدة، سارت فيها عكس سيرها التقدمي.

وما عمليات التذكر إلا أدوات، تؤكد اتجاه حركة الزمن الأمامية.

إن رائحة رغيف التنور التي في ذاكرة جدي، تحتاج العودة بالزمن إلى الوراء، وهذا مستحيل.

ومهما حدثنا الأجيالَ عن تلك الرائحة، ستكون النتائج مخيبة إذا

تمكنا من إعادة انتاج رغيف تنور بوسائل حديثة.

فالزمن عامل أساسي بكل التفاصيل التي تكّون أي فترة منه، وتدلل عليها.

وللعودة إلى تنور جدي، نحتاج إلى استعادة طرق قرانا الترابية، وشحة المياه، وبيوتنا الطينية، التي سكنها الأجداد بالتشارك مع حيواناتهم، والقمل إلى شعورنا وأجسادنا، والأعمال اليدوية الشاقة، وكثير من الأشياء التي قد يحتمل الوجدان والمخيلة إقامتها فينا، دون أن نحتمل نحن أو أبناءنا الإقامة فيها، فيما لو أعادتنا حركة الزمن إلى الوراء، وهذا حتما لن يكون.

وهذا كله يذكرني بصورة ليلى العامرية التي أحبها قيس بن الملوح، وقد انهالت عليها إثر انتشارها في مواقع التواصل الاجتماعي آلاف التعليقات التي تستغرب قصائد قيس فيها.

أخيراً إن الحكمة والعقل والمنطق جميعها تشترط تأثيث كل مرحلة من مراحل حياة البشرية بفكر، يتناسب معها، بحيث يسمح بانسيابية تتابع التطور الحتمي في الأجيال فكراً وسلوكاً ومكتسبات.

*****

## صناعة العدو الوهمي؛ والتهرب من المسؤولية.

يحكي رواد التنور من العجائز : أنهم نادراً ما كانوا يلجؤون إلى التنور ليلاً بهدف الخبز، لكثرة الأساطير والقصص حول الجان، إذ أنهم كان يعتقدون، أنها تفضل الإقامة في بيوت النار التاريخية هذه، خاصة وأنها كائنات نارية، وفق ما يزعمون.

علما أني لا أؤمن بمثل هذه الحكايا، وإن كانت قصصها إرثاً خيالياً مدهشاً.

لكن بعضهم أكد لي، أنهم كانوا إذا اضطروا لاستخدام التنور ليلاً، وضعوا في تجاويف جدرانه الحجرية شموعاً، وسُرُجاً، والميسور منهم كان يحضر لوكس.

واللوكس هو آلة غازية تنتج ضوءاً نتيجة اشتعال الغاز داخل جيبٍ حريريٍّ، صغير يتخذ شكل حبة الكيوي؛ إذا احترق، وسطع، ويسمى (قميص اللوكس).

ولكم ضُربَ المثلُ بهشاشة قميص اللوكس.

ولكم ذكرتني العقلية الشعبية لشدة خيالها، وهشاشتها بقميص اللوكس.

فعلى الرغم من قدرة هذه العقلية على السطوع في القضايا التي تتبناها، غير أنها عقلية هشة، كلفت مجتمعاتنا، وعبر الزمن ما لاتطاق أثمانه.

ومن أشد سمات هذه العقلية هشاشة قضية إزاحة المسؤولية عن كاهلها، واعتماد التبرير كاستراتيجيا لا بديل لها للتخلص من المسؤولية، والصاق التهم بالآخرين، والاستمرار في الهروب إلى الأمام.

وسنوجز أدلة عميقة الحضور في هذه العقلية دلالة على التجذر المخيف لهذه الاستراتيجيا:

١- تذكر الأسطورة أن إبليس تمكن من التسلل إلى الجنة لغواية آدم عبر جوف الأفعى. وبالتالي فالأفعى متآمرة لصالح إبليس، وآدم ليس مسؤولاً عن الخطأ.

٢- وهناك رواية تقول : أن حواء هي التي أغوت آدم، ليأكل التفاحة. وبالتالي فإن مسؤولية هذا الخطأ، تقع كلياً على حواء، ولا علاقة لآدم البريء بأي ذنب في مسألة الطرد من الجنة.

٣- تقول الروايات التاريخية أن كل الذين قتلوا الخلفاء الراشدين هم من اليهود والفرس، وبهذا تسقط مسؤولية المجتمع العربي المسلم عما حصل.

٤- منذ قرابة قرن؛ والعرب يحملون أمريكا، واسرائيل مسؤولية هزائمهم، وتدهور أحوالهم.

٥- يرد حكام العرب أسباب ثورات الشعوب ضدهم إلى المؤامرات، وترجع الشعوب أسباب فشل ثوراتها إلى عمالة الحكام.

٦- وإذا ضعف الحاكم انتقم من الشعب، وإذا ضعف الأب صرخ في وجه زوجته وأطفاله.

لنرى بعدها أن المرأة والطفل هما أضعف حلقتين في المجتمع العربي.

كان أبي – رحمه الله – يعمل بناء، وكان أثناء العمل يشرد، فيضرب يده، فإذا تألم شتم أمي أو شتمنا نحن الأبناء.

وهنا تحضرني بضع مقولات؛ تثبت أن قناعات المجتمع في لاوعيه؛ تحتاج إلى العمل الجدي في تغير كثير من المفاهيم، وآليات تناول الاسقاطات:

أ – قل لي من تعاشر أقول لك من أنت.

ب – الثوب برقعته.

ناهيك عن كل العبارات التي تلقي مسؤولية ما يحصل على الله، والقضاء، والقدر، والطبيعة والكون.

خمسون عاماً لم أسمع عربياً اعترف بالخطأ.

غزا صدام حسين الكويت، وبغض النظر عن أسبابه، إلا أن العقلية العربية تبنت وبشكل محموم الدفاع اللاعقلاني عن خطئه، وبأن الأمريكان قد ضللوه، والفرس خدعوه، والمعارضة تآمرت عليه، وأن إسرائيل تريد تدمير العراق!

ومن قبله أخطأ عبدالناصر في اليمن وسوريا ولم يعترف، وكذلك فعل الأسد في لبنان، وياسر عرفات في لبنان والأردن.

دون أن يقف واحد منهم معترفاً بخطئه أمام الناس.

ولا زال أتباعهم يعصمونهم عن أخطائهم.

سبعون عاماً ونحن نستمع إلى خطابات ومقالات وتحليلات، تشرح خبث الأعداء، ومساعيهم للفتك بالعرب.

دون أن نسمع تحليلاً واحداً في مَوَاطن خلل هؤلاء الحكام المعصومين، وتلك الشعوب المرسلة لخلاص العالم.

نعيش في بيئة لا تتحمل بتاتاً مسؤولية حروبها، ودمارها لأوطانها، فقرها، أو سوء اختياراتها، أو ضعفها، أو تخليها.

فالإسلاميون يؤمنون بأن الكفار هم سبب تشويه هذا الدين.

والآباء يعتقدون أن رفقة السوء، هي التي أفسدت تربية أبنائهم.

والأمهات يؤمن أن المعلم يكره أبناءهن، ويتعمد ترسيبهم في الدراسة.

والسنة يؤمنون بأن الشيعة هم سبب المشكلة، والشيعة يؤمنون أنه لا بد من استعادة معاوية حياً للاقتصاص منه بقطع رأسه.

وهنا تحضرني أسئلة: ما هي وظيفة العدو إن لم تكن تحطيم خصمه والقضاء عليه؟!

فلم الغوص في تحليل ممارسات العدو؟!

أليس الانشغال بدراسة سلوكيات العدو بهذا السخاء الشعبي هو هروب من مسؤوليات البحث في مواطن الخلل؟!

والتغطية على مواطن الضعف فينا، وغياب الخطط المطلوبة للخلاص؟!

العدو الوهمي آفة هذه العقلية، التي تبدع في صناعات العداوات الوهمية، بهدف التبرير.

تلك الفكرة التي تعمل على بناء كل التبريرات التي تمكن من التسويف والتأجيل والمماطلة وعدم المواجهة.

علمني عملي في التدريب أن التركيز على نقاط الضعف، لا ينبغي أن يكون على حساب نقاط القوة.

لذلك نرى وبشكل واضح كيف أن الواقع الفردي، والجماعي في المنطقة كواقع قميص اللوكس الهش، الذي ما إن تهتز اسطوانة الغاز تحته حتى يهر، ويتساقط رماداً.

فمع أول ريح تحمل إشاعة يرتبك الفرد والجماعة ويبدأ التساقط.

ومع ظهور ابسط الحقائق داخل ما يسمى دول هذه المنطقة ينهار كل شيء فيها.

لا زال بوجعني مشهد سقوط العراق إثر سقوط تمثال صدام حسين في ساحة الفردوس في بغداد.

أيعقل أن ينهار وطن بكامله لانهيار تمثال حاكمه؟

وأية عقلية تلك التي تربط مصيرها بمصير تثمال حاكمها؟!

كل ذلك الواقع سببه أن الجميع يبرر للجميع أخطاءهم، والجميع يؤمن بفكرة المؤامرة، والجميع يقتنع بأنه مستهدف، وأن العالم يسعى لإزالته.

دون أن نشهد حتى اليوم وقفة واحدة حقيقية تجعل الاعتراف بالعجز سيد الواقع، لتكون محطة للانطلاق الصحيح.

لتظل عقلية الغالبية العظمى حبيسة التنور في هذه المجتمعات التي لا تريد التخلي عن أي من موروثاتها مهما بدت ركيكة،

ومهما حوت من قيل وقال، وخيال غير ملهم، ومهما أثبتت نظرية العدو الوهمي عدم فعاليتها.

*****

## في كعبة أمي اطوف، لا في سواها

في آخر أيامها فقدت أمي تركيزها، إذ فتك بها الألزهيمر، لكنها لم تنس أننا عائلتها.

صارت تكيل لأبي الشتائم بلا سبب.. لكنها كانت تسأله من وقت لآخر قائلة:

- يا سعيد هل أكلت؟!

وتحضر له الطعام؛ متى خطر لها.

لم تنس أن غذاءه من مسؤولياتها كزوجة له.

كنت أسأل والدي الشيخ قائلاً:

- هل تصبر عليها لأنها مريضة؟!

كان يقول : بل لأنها أحبتني كثيراً في سنوات وعيها!

حين ماتت أمي، أقام أبي عند رأسها، وراح يعتب (والعتابا لون شعبي معروف).

كان في بداية تسعينه.

لم يكن صوته إلا آخر رسائل الحب التي في روحه.

كان أبي يحب النساء كأي ذكر شرقي.

لكنه كان يحب أمي كأي عاشق إنساني.

فالعاشق وإن جاع جسده، لا تشبع روحه إلاّ خليلة، عبر مع وجهها وصوتها كل ليالي الجوع، والبرد، والسجن، والتعب، والخذلان، والحزن، والصبر، والبكاء.

لم تكن أمي من ضلع أبي..

بل كان أبي من ضلعها، فقد كانت أمه، وحبيبته ،وخليلته التي قالت له قبل الرحيل بلحظات:

"سامحني يا سعيد، بحق الحب "

لذا بكى أبي..

*****

## غيثة والقزم

لست أعلم إن كان هناك ارتباط فعلي بين طول الجسد ومساحة العقل وحجم الطموح..

وربما كان الطموح رد فعل على ضآلة الحجم التي تشكل عقدة نقص عند الأقزام، وبالتالي يتوجه القزم للبحث عن التوسع والنمو وبشتى الأثمان، حتى لو كان الأمر عن طريق الإساءة للآخرين، ودون مراعاة أية معايير أخلاقية.

في إحدى جولاتي الداخلية في دولة عربية أفضل القفز عن ذكر اسمها، حطت بي الرحال عند عائلة لم أكن لأعرفها، لولا تعطل السيارة التي كانت تقلني عبر تلك المقاطعة، ولولا تلك الظروف، لما طرقت باب هذه العائلة، ولما كانت قد بدأت علاقتي بها؛ والتي لا تزال مستمرة إلى اليوم..

قضيت عند تلك العائلة التي اكرمتني ليلتين، فقد كنت في ريف ناء، بعد ان استهلك منا إصلاحُ السيارة المعطلة عدةَ أيام..

وفي اليوم الثاني من إقامتي، سألتني ابنة صاحب البيت أن أرافقها إلى صومعة تطل على القرية، كنت قد استفسرت عن ماهيتها قبل ذلك.

انطلقنا في طريق استغرقت منا ساعتين وعشر دقائق حتى بلغناها، أخبرتني خلالها رفيقتي غيثة، أن في الصومعة قزم، يعتقد الناس؛ أنه يطول في الليل وبشكل لا يصدقه العقل، لدرجة أنه قد يبلغ من الطول ما يمكنهم من مشاهدته من القرية! وبعض القرى المجاورة، وما إن تشرق الشمس؛ حتى يعودَ إلى طوله الحقيقي والذي هو قرابة النّصف متر، ولكن ما من أحد رآه يطولُ حقيقة في الليل.

وأخبرتني أن له من القداسة ما يفوق قدرة العقل على التصديق، وكلما ذكرت لها مقدساً، قالت:

أكثر، حتى سألتها إن كان يرقى إلى مرتبة قديس، فأجابت: بل هو من مراتب الشهداء، والصديقين..

امتلكتني حالة من الذّهول والاستغراب، وأنا اقترب من لقائه، فأي نوع من الشهداء الأحياء هذا؟!

وطمأنتني إلى كوني سأرى بعيني..

وصلنا إلى مقربة من الصومعة، فنادت غيثة:

يا سيدي الطاهر؟! هل انت هنا؟

فأتانا صوته الرقيق غير المميز أن: إن كان معك أحد فادخلي لوحدك.

ولما بلغنا الباب، استأذنت غيثة الطاهر لدخول الضيف الذي

معها، وبقائها تنتظر خارجا.

فأذن لي..

انحنيت، وعبرت الباب، الذي لا يتجاوز ارتفاعه المتر، واغمضت عيني، وفتحتهما مرات؛ لاستوضح الرؤيا، فإذ بي أمام كائن هزيل في منتهى الدّمامة والقبح، يرتدي ملابس، تبدو للناظر كأنها ملابس طفل، لم يتجاوز الشهر، يعتمٌّ بعمامة برتقالية اللون، طال شعره من تحت جناباتها، وتلاقى مع شعر ذقنه القليل فوق خديه، يتكيء بيده على عود، لا يتجاوز العشرين سم، كما لو أنه يمسك بصولجان..

وبادرني بقول: ما هي مشكلتك؟!

فسألته ببلاهة غير متعمدة مني: وهل أنت قادر على حل أي مشكلة؟

فتلمس تهكمي، وسألني إن كنت غريباً عن البلاد، فأكدت له ذلك، فطلب مني الأمان، ليخبرني حقيقته، فأعطيته ما طلب.

ولما كان المسكين بحاجة للبوح، روى لي كيف حاول أن يكون شهيداً في الحرب، ولكن الرّصاص أخطأه آلاف المرات، وكيف كان يئز من فوق رأسه دون أن يصيبه لقصره، ثم أخبرني كيف حاول أن يتزعم الحي الذي كان يسكنه إلا أن الناس وضعوه في

كيس خيش وربطوا عليه، واتوا به من مدينتهم البعيدة إلى هذا الجبل، الذي لم يغادره منذ ذلك الوقت، فاضطر إلى صنع خرافات عديدة حوله، لتجعل الناس يلجأون إليه جالبين معهم الطعام، وبعض الملابس، والمال، ليتمكن من العيش في هذه الصومعة المعزولة.

فسألته عن سر طوله ليلاً ، فأخبرني أنه قد صنع لنفسه سيقاناً خشبية ، يقوم بتوصيل بعضها البعض، يرتقيها، وقد حمل بيده مشعلاً، ثم يقف فوقها، ويمشي بها حول صومعته، الأمر الذي يمكّن القرى المجاورة من رؤيته، وبهذا أقنع الناس بخدعة أنه يطول ليلاً.

سألته إن كان بامكاني أن أساعده بشيء، فسألني عن بلدي، فأخبرته أني من لبنان، فاغتاظ، واسود وجهه، وقال بحزن:

"إن في بلدكم قزماً أشدُّ مني خداعاً؛ فاحذروه "

غادرت الصومعة، وبقيت طوال طريق العودة صامتاً، وغيثة تسألني عما رأيت و سمعت وما جرى، فلم أنطق بكلمة، وتركتها إلى عالم تخميناتها، خاصة وأني تأكدت أنها لم تكن قد دخلت تلك الصومعة من قبل، ورحت أفكر في أمر قزمنا ذي الكلسون النتن الذي يحلم أن يسود البلاد، ويختزل تاريخ الشهداء فيها!

*****

- ملاحظة : استعارة الكلسون من كانديرا .. حيث يرمز عنده للتاريخ .

## قاض وثلاثة أحمرة

تشارك مكاري وفلاح في امتلاك حمار يقضي أعمالهما، على أن يأخذ كل منهما الحمار يوماً.

وصار المكاري يحمّلُ الحمارَ أحمالَه عند المساء استعداداً للانطلاق فجراً ..

وراح الفلاح؛ يكدن الحمارَ بعد أن يعيدَه المكاري مساء، ويحجزُ دورَه، لينطلق إلى حقله قبل شروق الشمس..

واستمرَّ الحالُ هكذا أياماً..

حتّى اختلفَ المكاريُ والفلاحُ على مواعيدِ علفِ الحمار، فيقولُ الفلاح: شعيرُه الليلة عليك، ويردُّ المكاري: بالأمس كان معي، وقد أطعمتُه..

وبين موقف المكاري والفلاح، راح الحمارُ، يبيتُ ليالِ بلا علف جائعاً، يسيل دمعُه؛ دون أن يقوى على الشهيق، حتى أنهكَه التعب..

وبلغ الخلافُ بين الفلاح والمكاري مبلغاً؛ جعلهما يلجأن إلى الاحتكام لدى القضاء..

والحمار منسي في زريبته، لا ماء، ولا كهرباء، ولا شعير.

وفي أول جلسة، وبعد أن اطلع القاضي على ملف الخلاف. طلب الحمار لمعاينته قبل أن ينطق بالحكم..

فأخبراه: أن الحمار عاجز عن الوقوف على قوائمه..

فهز القاضي رأسه، وقد عرف السبب، وقال:

- الحمار هو الذي يقضي بالحمار لصالح هكذا حمارين..

*****

## إسمع يا غدي!

كانت قريتنا بضعَ غرفٍ، لا بيوت..

وكانت أزقتها مداس قدم، لا شوارع..

وإذا مر فيها الحمار وفوق ظهره روّاية الماء؛ يخترقها حشراً ..

لكنها كانت وطناً يا ولدي..

كانت عين القرية تروي قريتنا، وجوارها، وكل المحاور المصطفة على مسيلها.

وكان المسيل يضج بخشخشة أوراق الحور، والذرة ودوار الشمس، وكانت جِدالات العصافير فوق أغصانها؛ لا تنتهي إلا إذا حلَّ المساء بقمره، ونجومه التي تثقب ثوب كوكبنا الأسود بلمعانها الصغير..

كبرت قريتُنا، واتسعت أزقتُها لتفحيط سيارات أبناء جيلك..

وانطفأتْ قناديلُ الغرف إلى الأبد، بعد أن ابتلعتها أنوارُ الكهرباء التي تسري عبر شرايين أسلاكٍ؛ تكاد تحجب عنا سماء الوطن.

واختفت أشجارُ الحور، فقد قطعها البعضُ، وحولوها إلى سلالم، يصعدونها، لفحص مقدار الماء في خزاناتهم فوق الأسطح

الإسمنتية.

وانقطع بث العصافير الذي لم يكن يتوقف؛ إلا إذا القمَتْها أيدينا الصغيرة حجراً في لب الحورة العالي.

وصار دوار الشمس عند محمصة الداعوق، والسمير، وغيرها بطعمات مالحة وحامضة وبطعمة باربكيو، يتوسط الجلسات، ويتراكم قشراً في المنافض، حتى أن معلمي التربية الفنية في المدارس نسوا شكله وألوانه، لأنهم ما عادوا يرسمونه للأطفال.

أما العرنوس فما عدت أراه إلا بخاراً يخرج من طنجرة أبو ديبو التي تتوسط بسطته الجوالة بين الأحياء..

و صار نهيق الحمير نادراً، نشتاق إلى أنكره بعد أن خلت منه الزرائب.

حتى صرنا نلتقط مع الحمار سلفي، وقد بدا وسيماً بعد طول غياب..

يا غدي في طفولتنا كان القمل أخطر الأمراض التي غزتنا، غير أن لقاحه كان بسيطاً وجداً: مسحة ديمول مخفف بالماء، أو مسحة زيت كاز..

كنا نشرب من أجران الحجر والحنفيات الصفراء، وقد أطبقنا عليها شفاهنا، وما كنا نعرف الكمامات..

وكنا نغسل أكفنا مرات كثيرة بعد التوسخ بالتراب، ونمسح غبارها

بسراويلنا المبقّعة بدوائر الزيت..

كانت أمي تكنس البيت بمكنسة البلان، وتجلي الأواني بالصفوة ونادراً ما كنا نأكل الخضار، أو الفاكهة مغسولة.

وما سمعت قريتي كلها باسم الديتول..

كان الدوا الأحمر، والمرهم الأسود علاج كل جرحٍ.

كنا نبيت نحن والجدايا، والبقرة، والحمار، والدجاج معاً طوال أشهر الصيف.

وما كنا نعاني إلا من خدشٍ، أو وقعةٍ عن صخرةٍ أو جَلّ.

كان الخبز في غرفتنا شوالات من القمح، والطحين. والبندورة أجباباً في حديقة الدار، والزيت بالتنكة، والماء جِراراً، وكانت وسائدنا من الرويشة..

كبرنا، و تعلمنا أن نغسل أيدينا قبل الطعام وبعده، وصرنا ننظف أسناننا صبحاً ومساءً، ونستحم كل يوم.

اكتشفنا روائح ذكية كثيرة، غير أننا تركنا هناك في طفولتنا القذرة كل روائح الحياة التي كانت تجعلنا، لا نتوقف عن اللعب، والضحك، والحب إلا إذا أنهكنا النعاس..

اليوم وأنا أراكم تختبئون من الكورونا، وكثير من الأمراض خلف كريمات التعقيم واقنعة الوقاية، وقد قطعت بدونها خمسين سنة، أشفق عليكم في الأيام القادمة..

فقد غدا الماء يباع بالملي ليتر..

والبندورة بالحبة، والخبز بالرغيف، والزيت بالقنينة..
والأخطر من كل ذلك؛ أن المصافحة باتت خطراً، يحمل معه الموت ..
تخيل يا غدي؛ صارت كف أمك التي كانت تطعمك صغيراً، تهددك بالعدوى..
كل ما أرجوه يا ولدي؛ ألا تتحول تلك الأكف التي حممتك، وألبستك، ولاعبتك، وكل تلك الشفاه التي بوست شعرك، وكفيك، وخديك، وجسدك العاري طفلاً؛ إلى مسببات لقتلك وقتل أمانيك وأحلامك.

*****

.

---

مفردات :

الرواية = كيس مطاط اسود لنقل الماء .

المحاور ج محورة = قطعة ارض زراعية مروية

البلان = نبات شوكي جبلي

الصفوة = رماد نار الحطب

البواكي = جمع باكية وهي بيت الحمار

الجلّ = واحد من مدرجات الارض عند سفح الجبل

الرويشة = قشر البرغل

## الحمار المتذاكي والغزال الجميل

يحكى أن حماراً ادعى على غزال عند ملك الغابة، بتهمة الازعاج والإهانة كثيراً.

جمع الأسد أعضاء محكمته، لينظر في الأمر..

فطلبت المحكمة من الحمار، أن يعدد تهم الغزال أمام هيئة الادعاء..

وقف الحمار قائلاً: يا سيدي القاضي، كلما نهقت، رأيت الغزال؛ يسد أذنيه مستنكراً، وإذا مر بفِشكي في الطرقات، أغلق أنفه، وراح يسب الفاعل، وأنا كائن حساس، لا أحتمل الانتقادات، وجرح الشعور.

هز الأسد رأسه، ثم طلب من الغزال؛ أن يرد على التهم الموجهة ضده.

فابتسم الغزال، وقال: يا سيدي أنت أعلم منا جميعاً بسكان مملكتك، فهل سمعت صوتي يعلو في المجالس؟

فرد الأسد: لا!

وأن تعرف، أني إن أردت، أن أقول أمراً، استأذنتك، وتحدثت، وبصوت يليق بمجلسك.

أما عن الفِشك، فإن لي صغاراً، تعرف أكثر مني جمالها، ونظافتها، وأنا فعلاً أفعل ما قاله الحمار، ولكن حرصًا مني على تعليم صغاري آداب الغزلان، ولأجنبهم فوضى الحمير، فأي ذنب تراه في ذلك؟

فنهق الحمار احتجاجاً؛ يريد الكلام..

فزجره الأسد، وقال له: حقاً إنك حمار!

ثم نظر إلى الغزال، وقال له:

– اذهب، فأنت وصغارك مواطنون صالحون.

*****

## "فاشل باليد ولا عشرة على الشجرة"

شعار كل استحقاق انتخابي..

يستوطن لا وعي الجميع في المنطقة العربية عامة، وفي لبنان خاص.

فالمسؤول الفاشل، ركن من أركان إيمان الناخب الفاشل، لا تكتمل عقيدته، ولا يكون خلاصه إلاّ به.

والمسؤول الفاشل حالة من الرتابة تسكن الناخبين، وتغريهم بفترة إضافية من اللاحول والعجز الذي ينأى بهم عن كل تحد مجهول، أقل ما فيه تحريك الواقع الآسن الذي تعفن منذ عقود

المسؤول الفاشل جزء من أثاث بيوت الناخبين الفاشلين، يصعب التخلي عنه، ولا يمكن ترك مكانه فارغاً.

يستحيل ملؤه بقطعة جديدة، تختلف مع المألوف المزمن لتصميم بيوتنا الباهتة.

المسؤول الفاشل واحد من تلك الأكلات الشعبية التي تحذر الجدات من التلاعب بمقادير مكوناتها لئلا تفقد نكهتها، الأمر

الذي جعلها غير قابلة للتغيير، أو التطور رغم مرور عقود، وقرون على تناولها، حتى غدا مذاقها واحداً من الجينات الوراثية في بيولوجيا أطفالنا.

المسؤول الفاشل واحد من المقدسات التي لا دليل على قدسيتها، لكن قدسيته تأصلت في التكوين النفسي للناخب الفاشل، فصار يخشى المساس بهذا المقدس تجنبا لغضب الطبيعة والسماء.

المسؤول الفاشل في بلادي كالربابة، آلة بوتر واحد تصدر نغماً محدوداً، غالبية طبقاته تلامس النشاز.

وقد عجزت هذه الآلة عن الخروج من جلد الحمار وشعر ذيل الحصان ومنذ قرون طويلة. فلا أصالتها مكنت الأجيال من ترويجها عالمياً، ولا هي باتت قابلة للتدريس في معاهد الموسيقا المحلية والعالمية.

والناخب الفاشل في بلدي أشبه بالمنجيرة، مجرد أنبوب بخمسة ثقوب، أقصى ما يعزفه من نغمات دلعونة، وهوارة، وأبو الزلف، تمكن الدبيك من ضربات؛ تتكرر طوال الوقت، ومنذ مئات السنين دون أقل اختلاف فيها، وإن تخللها بعض هزات الكتف من تهويجة لأخرى.

والناخب الفاشل، والمسؤول الفاشل في بلدي يذكرانني بآلة السمسمية عند نَوَر العقبة في الأردن، مجرد تنكة فارغة، وأسلاك معدنية مثبته إليها، يصدر عن اهتزازها مزيج من النغم والنشاز الذي إن أطلت الإصغاء إليه، فقدت كل ملكة تمكنك من تمييز الجمال المتنوع.

ويظل في داخلي سؤال واحد؛ يشظي سكينتي:

لم لا يتنحى المسؤول الفاشل في بلدي لصالح محاولات سواه، ولم يصر الناخب الفاشل في بلدي على شعار؟

"مسؤول فاشل باليد، ولا عشرة ع الشجرة "

و أسوأ الوجوه وجه تعرفه بكل ملامح الفشل والشؤم فيه، وتخشى التعرف إلى غيره.

*****

## الحمار والسلحفاة

تناول حمار كتاباً، وراح يقلب صفحاته بذيله وحافره، ويهز برأسه، وصغاره الجحاش وأمهم الأتان من حوله؛ يفتحون الأفواه دهشة، بانتظار ما سيعلنه الأب المثقف عليهم بعد انتهائه من القراءة..

مرت أثناء ذلك سلحفاة، تسير بتؤدة وتأمل.

فلفت انتباهها منظرُ حمار يقرأ..

تقدمت من الكتاب ببطء، وتأملت فيه طويلاً، ثم التفتت إلى الحمار، ثم إلى أبنائه، وأتانه باستغراب..

ثم نكزت حافر الحمار؛ فرفعها عن الكتاب، وعدلت الكتاب، بعد أن كان قد أمسكه الحمار بالمقلوب..

وقالت : يمكنك الآن أن تحاول القراءة..

غضب الحمار، واعتبر أن موقف السلحفاة شخصي..

فسألها بانفعال: هل أنت تجيدين القراءة؟

فردت: لا

فسألها: إذا ما أدراك أنه كان مقلوبا؟

قالت: من صورتي فيه، فقد رأيتني على ظهري لا على قدمي

فنظر الحمار في الكتاب مجددًا، وعاد ونظر الى السلحفاة، فرأى أن فوق صفحة الكتاب صورة سلحفاة..

فابعد الكتاب بحافره، وقال:

إذا الكان الحمار ما بدق بيانو؛ معقول يصير يقرأ ؟؟

ومن يومها اتفق جميع السكان على أن يحكم الغابة حمارٌ.

*****

## المخبر سيء الظن

أكبر  مصائب النظام الأمني العربي أن أجهزة أمنية تسلط مخبراً حماراً لمراقبة دكتور فكر، وفلسفة، وأدب، وسياسة، وعلوم، ونخب المثقفين في البلد.

وتبني كافة إجراءاتها على تقارير ذلك المخبر سيىء الظن، مريض النفس، مقدس الكلام..

وتخيلوا معي؛ ذلك المخبر الأمي يحلل قصيدة، ومقالة، وخطاباً، وندوة، ونظرية لدكتور عبقري، ثم يعطي رأياً فيها.

وبناء عليه؛ يُستدعى دكتور، ويحقق معه.

وما أروع المحقق خريج محو الأمية، الذي لم يقرأ في السنوات العشر الأخيرة خمس صفحات من كتاب.

وهو يهتز في مقعده، إلى الوراء والأمام؛ ينفخ دخان سيجارته، يقطب حاجبيه، لزوم الهيبة.

ومن بعدها يحيل الملف إلى ضابط، ترك الكتاب عند باب مركز اختبارات الثانوية العامة.

ليطلع على تلخيص أو موجز تقارير المخبر الحمار.

ولله درُّها من أنظمة، تتبادل السفراء مع أمبراطورية بريطانيا العظمى، وممالك السويد، والدنيمارك، وسويسرا، والنرويج، و...

وأعلامٌ ترفُّ فوق تلك السفارات، وسيادةُ دولة.

وتحية لسيادة المخبر الحمار، يقرر مصير نخب العلماء في البلاد.

*****

## المنصة التي تليق بالحمار

يحكى أن حماراً أوكل حل خلاف بين أسود؛ تنازعت على تاج المملكة..

أختار الحمار لنفسه عدداً من المستشارين المتمرسين.

ونصب لنفسه منصة، تليق بحافره وذيله الغليظ..

ثم اعتلى المنصة بعد أن احتشد الجميع ومن بينهم الأسود المتخاصمة، وهمس في أذن مستشاره عن يمينه، ثم في أذن مستشاره عن يساره..

ثم رفع وجهه عالياً، ونهق بصوت عالٍ، وحاد؛ معلناً بذلك بدء الجلسة.

نظرت الأسود المتخاصمة إلى بعضها البعض، فكأنها تسخر من الحال الذي وصلته، وهمس أحدها:

"أحمار يفض النزاع بيننا" ؟

فعاجله الحمار بطرقة من حافره فوق المنصة، وبنهقة جعلته يصمت، ثم رفع التاج، وراح يتأمله، وفي نفسه نزعة وضعه فوق رأسه.

ساد صمت أمام فعلة الحمار، وطال.

والكل ينتظر أن يبادر الحمار لقول أو فعل شيء ما.

ثم أعاد الحمار التاج إلى مكانه، و همس ثانية في أذني مستشاريه عن يمينه ويساره، ثم ضجّ نهيقه القوي في المكان.

فساد صمت مطبق.

طرق الحمار بحافره مجدداً على المنصة..

وأعلن تأجيل الجلسة أسبوعاً..

وغادر المكان يلوح بذيله مطرقاً رأسه في التفكير.

فهم أحد الأسود ما يدور في نفس الحمار، فاعتلى المنصة، وزأر بحدة معبراً عن غضبه.

أجفلت الحيوانات بما فيها الأسود.. توقف الحمار ومستشاراه، يرتعشون خوفا.

فطلب الأسد منه العودة إلى القاعة!

استدار الحمار، يكاد يغشى عليه من الرعب والخوف، وراح يردد بصوته المتهدج:

أنا حمار لأني صدقت إني ممكن أن أصبح فاهماً.. اعذرني يا ملك الغابة.

أعلن استقالتي من منصبي.. وسأعود لأحمل متاع الناس.

رد عليه الأسد:

ستظل حمار المملكة إلى أن ينتهي عهدك.. وإياك أن تنهق ثانية في حضرتي.

خر الحمار ساجداً وهو يردد: أمر مولاي..

وتبعته بقية الحيوانات، تفعل ما فعل..

ربّاط السالفة: ليس كلُّ راسٍ تحتَ التاج راسَ ملك.

*****

## التكرار أخطر أنواع الإدمان

يعتبر التكرار من أهم استراتيجيات تطويع وتطبيع الجماهير، وحشرها في مشاريع؛ تستهدفها.

ولأن التكرار استراتيجية بسيطة، وغير معقدة يتم استخدامها وفي كل الميادين: السياسة، والتسويق، والدين، والتربية، والتعليم، والحب

نعم التكرار واحدة من أهم استراتيجيات الحب، إذ يدأب أحد المحبين على تكرار ممارسات، تحرض نزعة الفقد، والاشتياق عند الطرف الآخر مهما كان بليداً، أو متجاهلاً.

كأن يقف له في مكان معين، أو يتصل في وقت معين، أو يمر في دقيقة معينة، أو يردد كلمات معينة، أو يسلك سلوكيات معينة، ويظل يكررها، حتى تتسلل إلى لاوعي المستهدف، فتشكل محرضاً، إن افتقده أحس بالتغيرات والنقص.

كذلك يعتمد أهل التسويق مسألة الإعلان المكرر في الكلمات والشكل والألوان والأصوات عينها، ويصرون على ضخه، حتى يتوهم المتلقي أن هذا المنتج معروف ومجرب من قبله، وبهذا يمنحه الثقة، ويقوم بالشراء.

أما في السياسة فيلجأ السياسي إلى أن:

١- يكرر شكله الذي يريد تثبيته في لاوعي أتباعه، من إطلالة، ولغة جسد، ووقفة، ونبرة صوت، ليبلغ حد عدم تقبله فيما لو أنه غير ولو أمراً بسيطاً في ذلك.

٢- يكرر كلمات وعبارات وجملاً، تشكل هويته في لا وعي المستمع.

ليتولى بعدها قسم التسويق والدعاية تكرار ضخ تلك الأشياء، لتفعل فعلها في المتلقي.

ويحصل الأمر نفسه في الأديان، والتربية، فيمنح التكرار القدسية لأشياء لا علاقة لها بالقداسة، عبر استعادة الممارسات نفسها والشعائر نفسها، والمناسبات نفسها وبتفاصيلها الدقيقة من كلمات، ولباس، وطقوس، وزينة، وعطور، وممارسات.

الأمر الذي يولد جماعة، أدمنت أموراً، اعتادت تكرارها، وراح يسكنها الخوف، والهلع في حال نقصها، أو غيابها.

فلو أن سيدة كررت استخدام مسحوق تنظيف لسنوات، وأُسِرَ إليها أن ذلك المسحوق سيكون عرضة للتغيير أو الفقد، لأحست بالاضطراب والتوتر، ثم لسارعت إلى تخزين ما أمكنها منه.

والأمر نفسه يحصل مع الذي أَلِف قَصّة شعره، وطريقة لبسه.

كل ذلك يعكس للمراقب؛ وعلى مستوى العالم خشية الناس، وفقد الاتزان إذا ما مرض زعيم، أو تعرض للخطر، أو مات.

فإن بعضهم يبكي، وبعضهم يكفهر وجهه، وينهار بعضهم الآخر، وقد تبدو عن البعض منهم ردات فعل عنيفة.

هذا لأن الإدمان الأساسي هو في سنوات طوال من التلقي، والخضوع لمادة موجهة، وليس في سموم مادة مستخدمة عبر التعاطي.

لأن أخطر ما يؤثر على بيولوجيا أجسادنا هو تكرار التكرار، الذي تنبعث كيمياؤه فينا من خلال محفزات خارجية، لا حاجة لإدخالها مادياً إلى أجسادنا بالطرق الشائعة.

*****

## الحمار المنتفخ

دخل حمارٌ زريبَتنا، فدعا أبي إلى اجتماع، ناقشنا فيه هذا الدخول المفاجىء.

وقرر المجتمعون ترك الحمار على راحته في الزريبة، على اعتبار أن الزريبة تتسع لهكذا حيوان..

ورحنا نقدم له الطعام والعلف، حتى بطر، وصار صعبَ المراس..

وبعد سنوات مرت، كان فيها عنق الحمار خال من أي رسن، وليس فوق ظهره بردعة

أخذت تظهر على الحمار بوادر سلوكيات لم نألفها عليه من قبل، إذا راح ينهق كثيراً، ويرفس كثيراً، وقد بدا عليه البطر بطريقة لا تحتمل.

حار والدي، وحرنا معه في أمر هذا الحمار، وبعد اجتماع مطول، قرر المجتمعون ردع الحمار، كما اجمعوا على اقتراح طرده من الزريبة.

ولكن الصدمة بانت، حين عجزنا عن اخراج الحمار عبر باب الزريبة، وقد انتفخ جسده، وضاق الباب به.

جلسنا ووالدي من جديد، وأخذنا وقتاً لتدبر هذه المشكلة؛ حتى خرجنا باحتمالين:

- إما أن نهدم جانبَي الباب، ونكسره، ليتسع للحمار.

- أو أن نترك الحمار في الزريبة دون علف إلى أن ينحف، ويفقد حجمه وانتفاخه.

عندها يصبح مروره عبر باب الزريبة أمراً وارداً.

وكلا الحلين كانا على حسابنا جميعاً.

*****

## أبو حمزة وحماره الفوضوي

جعير حملات الموتسيكلات وأغاني ركابها الترويعية وتطاول راياتها البشعة على فضاءات التآخي والتعايش الحضاري، تتبىء بسلوكيات متعمدة، تهدف استفزاز الناس واجبارهم على همجية مضادة، ذكرتني بمشهد لطالما رأيته كثيراً في حارات قريتي أيام الطفولة..

فقد كان لي جار اسمه أبو حمزة، وقد كان يقتني حماراً رمادي اللون، يسميه الأغبر.

لم تتحسن العلاقة بين أبي حمزة وحماره الذي تمكن من قتله عضاَ، ورفساً، وسحلاً في نهاية المطاف.

فبعد أن كنت استيقظ في غالبية صباحاتي على نكات أهل البلدة الساخرة من أبي حمزة وحماره، تطور الأمر؛ وصرت أركض مع الراكضين لانقاذ أحدهما من غضب الآخر، فالمح مرات الناس يطوقون الحمار الذي ترك أبا حمزة مرفوساً، أو مدمى، وأخرى

أرى الناس فيها، وقد أمسكوا بذراع أبي حمزة التي تقبض على ساطور، وقد راح يرعد ويزبد متوعدا بتقطيع الحمار.

وظلت علاقة الحمار بأبي حمزة سيئة إلى أن شاهده الناس يعود من الحقول راكضا يسحل خلفه أبا حمزة؛ الذي كانت قدمه لا تزال موثوقة إلى برعة الحمار، والدم يسيل من كل ما بدا من جسده، فتكاثروا. أوقفوا الحمار، وفكوا وثاقه، وهموا بنقله إلى الطبيب، لكنهم اكتشفوا أن الأوان قد فات، فقد فارق الرجل الحياة أخذت الحمية الناس، فاحضر احدهم مسدسا، وقابل الحمار وجها لوجه مسدداً إليه سلاحه، وراح يطلق النار عليه، حتى أرداه قتيلاً.. وهكذا شهدت البلدة جثة الحمار إلى جانب جثة أبي حمزة وسط حزن وهرج ومرج، في سابقة لم تشهد لها مثيلاً من قبل.

إلا أن المفاجاة حصلت بعد الانتهاء من مراسم دفن أبي حمزة ، فبعد أن وصل الرجل الذي أردى الحمار معزياً، وما أن جلس، حتى وقف ابن أبي حمزة الأصغر مطالباً أمام الناس الرجل القاتل بثمن حمار أبيه المقتول، وبذلك دخلت البلدة مرحلة ما بعد قتل الحمار!

اليوم ومع تذكري ما حصل مع أبي حمزة، وحماره، وقريتي أتساءل: هل سيظل حمار الفوضى فلتاناً في ساحات الناس،

وحقولهم؛ يخرب هنا، ويدمر هناك؛ دون أن يجرب صاحبه أن يقصر رسنه؟!

ألا يرى صاحب الحمار احتمالية أن يبلغ حمار الفوضى المرحلة التي بلغها حمار أبي حمزة؟!

أم أن صاحب هذا الحمار؛ يبحث عن حانق؛ يستل مسدسه ليردي الحمار، فينقل البلد إلى مرحلة ما بعد مقتل حمار الفوضى؟!

خاصة وأن القاضي حكم على صاحب المسدس بدفع ثمن حمار أبي حمزة؛ لأنه لم يستأذن الورثة للقيام بما أقدم عليه.

وبعد أن أنهيت قراءة هذه القصة على صديق مقرب، سألني

ألا تخشى على نفسك مما كتبت؛ وقد تلقى مصير حمار أبي حمزة؟!

فقلت له: صدقت يا صديقي.. ولقد نبهتني إلى أن مشكلتي تكمن في أن لا ورثة لي، ولا بواكياً.

*****

## رماد مجهول الهوية

إلى اليوم لا زلت لا أعلم، مكونات الرّماد.

فعلى الرغم من معرفتي بأن الرّماد هو جسد النار إذا فارقه الله.

يبقى السؤال: ممّ يتكوّن الرّماد؟!

لأن الرّماد كائن غير قابل للاشتعال، وهذا أعمق أسراره..

كالنّار إذا استعرت، تصبح غير قابلة للاشتعال، فهي مشتعلة حكماً، وما جدوى اشتعال المشتعل؟!

ولأنه كائن مبهم، وعلى الأقل من قبلي أنا، ولا أظنّ أن دراسة علميّة قد تناولت هذا العنصر..

وعلى الرغم من أنه نفايات، ولا أعرف إن كان يصنّف ضمن النّفايات العضويّة..

غير أنه نفايات لم تخضع للتّدوير حتّى الآن، والأبرز أن أهل القرى يسمون الرّماد: صفوة.

لكن اللافت في الأمر، أن أهل التنور، كانوا يجمعون الرّماد بكميّات، ويوزعونه على أعقاب الأشجار في البساتين، ثم يجلسون، ليتندروا في فوائد مركب لا هوية له!

ومنذ متى كان للرّماد فوائد زراعية؟! وهو أشجار استحطبت، فتخشبت، ثم أحرقت، حتى غدت رماداً.

وكل ما تلتهمه النّار من كائنات حية، لا تذر منه شيئاً.

حتّى الصّخر إذا ما التهمته النار فَقَد تماسكه، وتحول إلى كتلة هشة، تتفتت عند أول طرقة شاكوش.

فمن أين أتى إيمان مجتمعات التّنور بالرّماد؟!

لعل مردّه إلى أن رغم أنها ترمّدت بفعل تفكيرها الرتيب، إلا أنها لا زالت تؤمن بغيبيات تقول بإحياء العظام وهي رميم، والرّميم هو رماد العظام، لكن هذه الغيبية مشيئة أبعد من طاقات مجتمعات التّنور.

وإن كان في رماد النار جدوى، فما الجدوى المرتجاة من إحياء رماد عقول؛ لا شيء فيها أكثر من رماد؟!

عرفت أربعة استخدامات للرّماد على مر مشاهداتي، ليس أكثر:

فنساء القرية استخدمنه في تنظيف أواني الطبخ النحاسية، خاصة البيضاء منها.

وعند تصنيع الزبيب، يغطس العنب بمغلي الماء والرّماد لفترة عشرة دقائق، قبل نشره فوق الأسطح، على اعتقاد إنه طارد للحشرات، ومن هنا اكتسب صفته كصفوة.

ورأيت أحمرة الرّيف صيفاً، تتمدد فوقه، وتمرغ جسدها فيه، إذا سكن البرغوث جلدها.

وقد سمعت المَثل الذي يضرب في تظليل الناس عن الحقيقة: " كذرّ الرّماد في العيون"

وما هذه المقالة كلها إلا للخلاص إلى نتيجة واحدة، ألا وهي أن بقايا التنور بكل محتوياتها، كانت وستظل رماداً فوق رماد، خاصة تلك النظريات، والخطط، والنوادر، والخرافات والأوهام التي نتجت عن مخيلاتها الرّمادية، تلك التي تنتظر قدوم السّفياني، والأعور الدّجال، وشروق الشّمس من مغرب، فتشيد من رماد هذه الانتظارات منصات، تنشد بها انتقاماً لعجزها المزمن.

فجل ما في ذاكرة هذه المجتمعات ومخيلاتها كناية عن رماد حملته إليها احتراقات الأعمار الواهمة، وما أشد هشاشة قصور

شيدتها البلاهة من رصّ رماد الوهم فوق بعضه البعض، والتّخلّي عن مسؤوليات المحاولة، وانتظار انهيار شامل، يخلّص العاجزين بتدمير كلّ شيء، للا شيء!

فأخطر ما في الرّماد أنه كائن مجهول الهويّة.

*****

## الصوت نادراً ما يخون

بدأت الغناء في عمر  تسع سنوات.

كان الذي قد اكتشف صوتي الأستاذ جوزيف بوعاصي.

كنا يومها في مدرسة حكومية، وكان هو مدرساً يأتي من زحلة إلى قريتنا الصويري، ليعلمنا الموسيقا.

وتخيلوا أن يدخل النغم على يد مدرس رقيق من زحلة قرية كانت أشهر آلاتها الموسيقية منجيرة بين أصابع الرعيان، وربابة بين يدي الريس علي النوري في خيمته الصيفية على عين الصويري.

كانت عين الصويري أيامها ملفى عصافير، ونسائم باردة، وحفيف أوراق شجر الحور، الذي كانت تغص ظلاله بالصيادين، والملايّة، كما كنا نسميهم أيامها، وبالنور الذين كانوا يأتون من المجهول.

لم تكن طرقات قريتي الداخلية أيامها؛ تتسع لغير الدراجات الهوائية، والدواب.

في الحصة الأولى للمدرس جوزيف بوعاصي، جلس على كرسيه خلف كوع الصوبيا، وقد كان الوقت شتاء ..

فتح صندوقاً أسود. استل منه آلة؛ لم أكن قد رأيتها من قبل، ولا حتى في التلفاز، لأننا لم نكن نملك أيامها تلفازاً.

بدأ يمر بأصابعه على الأوتار، ويلف مفاتيح سوداء باليد الأخرى، حتى شعرنا أن صوت الآلة قد استقام.

استوى على مقعده، وبدأ يعزف..

أذكر أن المدرس قد نبهني بسؤال:

– عمر لماذا تبكي؟!

وأذكر أني انفجرت بالبكاء وبصوت مرتفع..

بدأ الأطفال من حولي بعضهم يبكي لبكائي، والبعض الآخر يضحك ساخراً مني.

بكيت حتى هدأت، بعدها ناداني المدرس، وأخذ بيدي الصغيرة، وراح يمررها على ظهر العود.

لا زلت إلى اليوم أشعر بملمس العود فوق شغاف روحي، لا في باطن كف يدي.

سألني: هل تحفظ أغنية..

وبلا تردد قلت:

"ع اللوما "

قال: غنها..

ودون تردد انطلقت أغني..

وبدأت أشعر بنغم العود؛ يسيل على عنقي مع سيلان صوتي الصغير..

أخذني الأستاذ جوزيف بو عاصي من يدي، ودخل بي غرفة المدير الأستاذ حسين بو دية.

وقال له: اسمع.. ثم طلب مني إعادة الغناء.

فبدأت أغني، وهو يرافقني بالعزف.

عدت إلى البيت مطبقاً كفي على ما لمست، وفي خيالي تلك الآلة التي لم أعرف اسمها.

رحت أرسمها على ورقة، فبدت كإجاصة..

وفي المساء عرضتها على أبي، وأنا أسأله:

– هل تعرف ما هذا؟!

فأجابني: إنه عود.. أين رأيته؟!

غصصت بالبكاء.. وأنا أحاول؛ أن أخبر أبي بما حصل.

وعدني أبي؛ أن يشتري لي عوداً.

ورحت أنتظر العود، وأتدرب على العزف في خيالي..

غادرت لبنان إلى العراق للدراسة، ولم أكن قد بلغت السادسة عشرة، وهناك بدأت علاقتي الحقيقية بالعود..

مات أبي، ولم يشتر لي عوداً، ليس لعسر، بل لأنه ككل الآباء الشرقيين، يقولون لأطفالهم ما لا يفعلون، لاعتقادهم أن الأطفال بلا ذاكرة.

لكني عدت من العراق ومعي عود، وبقيت أعزف وأبي يغني، وظل هكذا إلى ما قبل موته بثلاثة أشهر.

ذات مساء، قال لي:

- جيب هالعود سليني شوي.

مازحته قائلاً: أتذكر ما لي في ذمتك؟!

فقال بلا تردد: عود!

ثم أكمل: إن شاء الله عندما أتحسن، نذهب معاً، أنت تختار العود الذي يعجبك، وأنا ادفع.

لكنه، أخلف بوعده للمرة الثانية، ولم يتحسن. وظل صوته في رأسي:

"إصحك تبطل غناني "

كنت أعرف ما يعني بكلامه.

فقد كان ينام تاركا النافذة مفتوحة، ليسمعني إذا بدأت العزف والغناء، وقد نام الجميع منتصف الليل من على زاوية البرندا، كما لو أني ناسك يتلو مسبحته الليلية.

وها أنا لا زلت أغني..

اغني.. لأجل اثنين فقط:

أبي..

ومدرسي جوزيف بو عاصي..

فقد كانا أول من أحب صوتي الذي لا أطيق حبسه؛ إذا ما انطلق يغني.

رحلت عين الصويري، ورحلت عصافيرها، ونسائمها الباردة، والريس علي.

ورحل أبي، ولا أدري إن رحل جوزيف بوعاصي..

لكنه صوتي.. يأبى الرحيل، ويصر على أن يذكرني بكل الذين لا زالوا يقيمون فيه، فالصوت ذاكرة إنسانية؛ نادراً ما تخون.

*****

**لماذا فشلت؟!**

في طفولتي كان ديوان أبي يعج بالضيوف البسطاء، وهكذا كان كل المجتمع، فلم يكن بين ظهرانينا لا متنبي، ولا محمد عابد الجابري، ولا تلستوي، وصادفت أني من بيئة قد كان بينها وبين العظماء جبال من سعي، ووعي، وتضحيات.

كانت تبدأ السهرات بأحاديث مبتورة، وتستمر إلى أن ينطلق السرد، فتتفتح المخيلات عن ما لا يحصى من أساطير، وقصص، وحكايا..

ولسوء حظي، لم أجد من يعي معنى أن تحكي، ومن حولك أطفال يتحلقون.

كان الطفل بالنسبة للمتحدث في تلك البيئة غير عاقل، و(قرد شو بفهمه).

ويبدأ الحديث عن طول سيدنا آدم؛ كما كان يطيب لهم أن يسموه، ثم ينتقل إلى جمال يوسف، ثم يعرج صوب صبر أيوب،

ليبلغ عذابات المسيح، وأمه التي سكتت، وقد تركته يدافع عنها وهو في المهد، ليحلّق المتحدث مع ركوب النبي الأمي البراق والصعود إلى السماء.

وفجأة ينتقل إلى قصص عنترة، والزير سالم، وجساس، وكليب، تلك التي كانت تغدق على المخيلات بخيال، لا يطيق كبحه.

ولا أدري كيف يتحول الكلام إلى الحديث عن الجن، والمارد، ومواطنهم في المحفارة والعين، وبين العليقات.

وينقلب إلى الحديث عن أصحاب الكرامات الذين يطيرون بلا أجنحة، وعن الرَصَد، والذهب المخبّأ في القبور، والكهوف، حيث لا يجده؛ إلا من يجد تلك الصخرة التي عليها قدم موسى، الذي قتل فرعون الذي يستحق القتل؛ لأنه لم يكن كافراً فحسب، بل وغول أطفال أيضاً.

وتطول السهرة، وتمتد ساعات الخيال التي لا تنضب، وأصوات المطر، والمزراب، واحتكاكات ما تخلع من خشب، وحديد في الأبواب، والأسطح المستعارة، والنوافذ خارجاً، جميعها تضفي على السهرة جواً يحبس الأنفاس بين التحفيز، والخشية التي كانت تجعلني أتبول على نفسي ليلاً، لأُجلد صباحاً؛ قبل حمام بماء الشتاء البوظ.

كنت أنام الليل وأنا أنتظر أن أصبح طويلا كآدم، وأظل أعرض وجهي على المرآة؛ لعلي أكتسب جمال يوسف، وانتظر أن أصاب بالمرض؛ لأتفوق على أيوب، وأحلم بأن أعوض على مريم في مسيحها، وأتيه من شدة التفكير في تصميم براق، أركبه؛ لأبلغ ما بلغه محمد.

وفي الصباح أبدأ بصناعة الرماح لعنترة، والسيوف لجساس وكليب.

ثم أبدأ التخطيط لربط الجن، وإعادته إلى التنور، وتوظيف المارد لصالحي، وللطيران، وقتل فرعون، وامتلاك الذهب، وتحويل المحفارة إلى منتزه سياحي.

لكني وبعد كل هذه الجهود الحثيثة فشلت!

فلم فشلت؟!

فشلت لأني حاولت أن أطول، ولم يخبرني أحد بدور علم الوراثة في البنية الجسدية، وقد كان كل أقاربي من مربوعي القامة.

فشلت لأني لم أجد من يخبرني أن وجهي يليق بي، وأنه قد لا يناسبني بتاتاً وجه يوسف.

فشلت لأني لم أسمع من أحد؛ أن صبرنا على ما نحن فيه اليوم

يجعل أيوب يستحي منا. فشلت لأني حاولت أن أكون مسيحاً، في الوقت الذي كانت أمي فيه منشغلة بإطعام البقرة السوداء، ولم تتنبه للصليب الذي كنت أصنعه من الثقة العمياء بقصص من حدثونا في تلك السهرات.

فشلت لأني حاولت أن أكون نبيا يقدس السماء، في الوقت الذي لم أجد فيه من يخبرني؛ أني أستطيع أن أكون بشراً يحب الأرض .

فشلت لأن كافة الرماح والسيوف التي صنعتها لعنترة، وجساس، وكليب، كانت من عيدان الذرة، وسيقان دوار الشمس التي كنت أجففها على السطح، ثم تأتي أمي لتستخدمها حطباً، تسعر فيه نار التنور يوم الخبز.

فشلت لأني لم أجد من يخبرني قصة دونيكشوت الذي ظل يحارب طواحين الهواء، وأن الجن والمردة من صنع خيال العاجزين.

فشلت لأني حاولت قتل الفرعون، في الوقت الذي كان فيه كل من حولي يصلي له.

فشلت لأني اعتقدت أن الذهب أغلى الأشياء.

فشلت لأني طرت فزعاً حين نظرت من شرفة في الطابق العاشر في بيروت، وشعرت بمتلازمة الخوف من المرتفعات، وأنا الذي كنت أتباهى بالقفز عن سطح التبان إلى المزبلة خلفه.

فشلت لأني كنت أصم أذني عن صوت المزراب وعن كل ما تخلع، بدل أن أقوم بتثبيته، والاستثمار في مياه المطر التي لا زالت تفيض، وتحدث الخراب كلما حل الشتاء.

فشلت لأني أمنت بكرامات الساهرين عند أبي، أولئك الذين اتخموا مخيلتي بدخان تنور، لا زال إلى اليوم، يعمي بسَكَنه عيوني، ويحجب عني الرؤية بوضوح.

فشلت لأن المحفارة التي كانت مستنقع ضفادع ومياه آسنة، تحولت إلى مستنقع سلوكيات تشير إلى مخلفات مجتمع التنور، ولأن عين الضيعة جفت، وقد أثبتت أن الجن يسكن حولها؛ وليس فيها.

فشلت لأن شلش عليق الشُعُب الضيقة في قريتي، والذي أزالته جرافات توسيع الطرقات، لا زال يمتد تحت جلودنا، وفي لا وعينا، ليراكم في كل الشوارع التي نحاول تعبيدها مطبات؛ تحطم كل مركبة؛ تعمل على العبور بنا إلى ما وراء تلك الجبال.

*****

## أنا من القنيطرة!

ثم يصدح صوت فيروز: وسلامي لكم .

المذياع يتوسط جلوس أبي، وأمي فوق حصير القش الذي كان يترك أثلاماً في أكفال الجالسين، وأفخاذهم.

تمسح أمي أنفها، ودمعها بطرف منديلها الأبيض، فيما يختفي وجه أبي تحت ذلك السواد الذي اكتساه.

كان هذا ما أدمنا سماعه من إذاعة صوت العرب من القاهرة ..

وبين رسائل تبث من فلسطين، وتهديدات المذيع أحمد سعيد، وعجز أبوي أمام المذياع، كان السؤال الذي حصلت بعد طرحه على كف؛ جعلني ارتطم بالجدار من الجهة الأخر..

بقيت أنصت إلى رسائل الأهل في الأرض لدقائق طويلة ..

ثم قاطعت المذياع، وتوجهت لأبي بسؤال:

– أليست فلسطين محتلةّ؟!

فأجاب: بلى

قلت: والدخول أليها والخروج منها أليس صعباًّ؟!

قال أبي: بل مستحيل!

قلت: وصوت العرب من أين تبث؟!

فأجاب أبي بكل ثقة: من القاهرة في مصر.

قلت: فكيف تصل رسائل كل هؤلاء الناس إلى الإذاعة في القاهرة؟!

انتفض أبي، وقد باغته السؤال!

ثم قال بحدة: بل، تصل.. تصل..

وأعدت السؤال متواقحاً.

فزجرني بنظرة، ثم قال : إبن طيزي بدو يعلمني!

وأجبت ببرودة: وأين المشكلة؟

أذكر أني أفقت على كفيَّ فوق صدغيَّ اللذين ارتطما بكف أبي من جهة وبالجدار من أخرى.

ثم طلب مني أن أعيد المذياع إلى جارنا الذي يعيرنا إياه كل يوم في مثل هذا التوقيت؛ لسماع نشرة الأخبار وبرنامج " سلاماً وتحية"

ويشترط علينا أن نتقاسم معه ثمن بطارياته، فتكون مرة علينا، وأخرى عليه.

كان المذياع متوسط الحجم ذا حقيبة يمكن تعليقها إلى الكتف، كنت في كل مرة لا أعيده إلى صاحبه؛ إلا إذا سرقت لنفسي عشر دقائق، أفتش فيها عبر محطاته، محاولاً فهم العلاقة بين ذلك المؤشر البني الذي يمر أفقياً فوق شريط الأرقام، وبين مفتاح الدوران الذي يلف يميناً أو يساراً.

ثم صار لنا مذياعنا الخاص، الذي كنا ندلله جميعاً، ونرعاه بكل حرص وحذر، لأنه كان نافذة أبي على خطابات عبدالناصر، وأغاني أم كلثوم التي كانت تصلنا مليئة بالبرازيت، أكثر من المضامين التي لم أكن أعي أبعادها..

مات عبدالناصر، وثم ماتت أم كلثوم، وماتت إذاعة صوت العرب، وبدأ بعدها موت صوت العرب كلهم، ومات المذياع، إذ حل محله التلفاز..

إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يمت فيّ هو ذلك الطفل الذي لا زال يبحث عن جواب خلفه ذلك الكف الذي حملته سنوات.

بحثت، وفتشت، لأحصل على جواب عن كيفية وصول الرسائل من داخل فلسطين إلى مكتب إذاعة صوت العرب، فاكتشفت أن

لا رسائل كانت تخرج من هناك، وأن الأمر لم يكن أكثر من مجرد أسلوب من أساليب التعبئة، عبر تسجيلات كانت تقوم بها المحطة في واحد من استديوهاتها داخل مصر، كجزء من الدعاية الحربية..

وهذا ما جعلني، أثق أن لا قضية للعرب، وما فلسطين إلا واحداً من سلالم الظهور التي صعدها كثير من أبطالنا الوهميين، وأن القضية الحقيقة هي أني وعيت؛ وانا الطفل الصغير قبل أبي، وقبل جدي؛ أن أصل النار الذي ينبعث من حطب التنور المشتعل أهم بكثير من حجم الدفء الذي تبعثه في أجساد أهل التنور، لأن الطلاء مهما كان لامعاً؛ لا بد أن يكشف ما تحته مهما تأخر الوقت.

*****

## وحده كيس النفايات يحوي فيه كل شئ

في لقاء لأكياس النفايات في إحدى الحاويات التي كانت تنتظر ترحيل محتوياتها..

تساءلت تلك الأكياس عن محتويات كل منها، وراح كل كيس يسخر مما يحمله الكيس الآخر..

فحامل الاحذية المهترئة سخر من حامل أوراق المراحيض، وبدوره تعرض الأخير للسخرية من حامل بقايا الطعام الفاسد، وسخر حامل الأوراق والكتب منها جميعا باعتباره حامل فكر وثقافة، حتى ساد جو من التنافر وعدم الألفة فيما بينها جميعا..

فتنحنح كيس فارغ كان في زاوية الحاوية قائلاً:

– جوهر القضية ليس في ما تحمله في جوفك من نفايات، ما دمنا جميعا في الحاوية ذاتها ومصيرنا إلى مزبلة واحدة، المهم في القضية أننا جميعا نعبأ رغما عنا بما لا علاقة لنا في انتاجه، ودون أن نستشار فيما نفضل حمله، ونربط ونرمى بعد كل هذه الخدمات هذه الرمية البشعة، وها أنتم تصنفون بعضكم بعضا

في طبقات ومستويات وكلنا في حاوية نتنة، وإلى مزبلة نتنة، فأي حماقة أصابتكم؟!

ثم صمت الجميع عندما شعروا بالحاوية ترتفع لتلقى محتوياتها كاملة في عربة النقل التي ستنقلها الى مكب النفايات بعيداً عن المدينة!

*****

## الأماكن الطاردة

هل جربت يوماً إجراء صورة رنين مغناطيسيMRI ؟

هل جربت النوم في قبر؟!

استبدلت ملابسي بروب أزرق داكن، وصعدت لسان آلة التصوير الذي ثبتوني إليه بأحزمة فوق قدمي ورأسي.

ثم راح اللسان ينزلق بي في جوف الآلة التي راحت تصدر صريراً، وعنيناً، وجعيراً وطقطقات، حتى بات كل جسدي داخلها، وشعرت معها أني غادرت المكان وإلى الأبد.

سقف الآلة المقوس فوق رأسي على بعد عدة أصابع..

وفي أذني تعليمات تردني بالسماعة:

تنفس بهدوء..

لا تتحرك..

فجأة انقبضت أنفاسي. توهمت أن الآلة قد تطبق علي، وتقضمني..

لم يسكني هذا الوهم أكثر من عدة ثوان، لكنه جعلني أصرخ:
أخرجوني.. سأموت!
أخرج التقني رأسي خارج أنبوب الآلة قليلاً.
هدأ من روعي، ثم أدخلني من جديد..
دام وقت التصوير قرابة سبع وعشرين دقيقة..
كنت برفقة صديق، أثناء زيارتنا لأحد المحافل الماسونية يوم طلبت منه أن يعطيني فكرة عن خطوات تكريس الأخوة.
أنزلوني عبر فتحة معدنية إلى سرداب مظلم ضيق، وأعادوا إغلاق الفتحة، ثم سمعتهم وقد دخلت في ظلام دامس، يقفلون الفتحة المعدنية بالمزلاج، والقفل، ثم تلاشت الأصوات.
ضبطت أعصابي في البداية.. صبرت.. تحمل..
حتى بدأت تتسلل إليّ أوهام؛ جعلتني أفقد أعصابي.. لكنني لم أصرخ.
رحت أتخيل حدوث طارىء قاس في الخارج، يمنع أصدقائي من إعادة فتح الطاقة، وقد بقيت في السرداب إلى ما لا نهاية.
ثم تذكرت تجارب الرهبان، والأبرياء الذين قضوا داخل كهوف؛ سُدَّتْ عليهم بالحجارة والنار والدخان..
لم أكن أعرف قبل هاتين التجربتين معنى الأماكن الطاردة، حتى تناقشت قبل أيام مع صديقة حول مشكلة محددة، فذكرت على مسمعى عبارة الأماكن الطاردة.

فاستيقظت على هذا المصطلح، ورحت أفتش في ذاكرتي عن كل الأماكن الطاردة التي لفظتني في حياتي.

اكتشفت أن المكان الطارد ليس مجرد جغرافيا قاسية، مظلمة أو مخيفة..

بل قد يكون جغرافيا داخلية فينا، أحدثتها خبراتنا السلبية التي ملئنا بها رغماً عنا.

فكم من جلسة، شعرنا خلالها بحاجة للصراخ بغية إسكات الجميع عن كلام تافه؟!

وكم من لقاء، وددنا أن نخرج منه، وقد أخذنا نجري، ونلتفت خلفنا، لئلا يلحق بنا من نفر منه؟!

وكم من شخص، جمعتنا به الصدفة، وشكرنا الله والكون على لحظة انتهاء الكلام معه؟!

وكم من كتاب فتحناه لنقرأه، ثم أغلقناه، ثم فتحناه، ثم أغلقناه، ثم فتحناه.. حتى أتممناه، ونحن نتنفس ال "أف"، عندما قذفنا به بعيداً.

وأشد الجغرافيا وعورة هي البيئة الطاردة، تجعلك – لوعيك – تفتش عن أول ثقب، يسمح لك بحمل حقائبك؛ والخروج..

فالفوضى، والرتابة، والجهل، والركود، والانغلاق، والتدين السلبي، والحروب، والصراعات، والجدل، والاشتغال بالتفاهات، ورفض الآخر، والتجاهل، وو..

كلها أماكن طاردة، وليست مفاهيم، فنحن نقيم في الحالة، لا في المكان ..

وإلا لم الانتحار، والقتل، والطلاق، والمقاطعات، والجفاوات، والبلوكات الحديثة في وسائل التواصل الاجتماعي، والتي تشبه إغلاق الحدود في الجغرافيا الأخلاقية والسياسية؟

جميعها تطردك منها بقرار تتخذه بنفسك، وقد أوصلتك إلى خيارين لا ثالث لهما، الاستسلام والتحول إلى حالة طاردة، أو الفرار إلى أبعد ما تستطيع عن ملاحقتك..

ورحم الله القائل "من عاشر القوم أربعين يوم"!

وأبشع الأماكن الطاردة تلك التي تبتلعك رغماً عنك، وقد تجنبتها زمناً.. إلى أن تألفها، وتتماهى معها..

وإن كنت لا تصدقني، فاسأل سجيناً!

ستجده وإن شكا لك، يبكي، وينوح لأن السجن الذي لفظه، بات يطرد منه من حوله.

وها أنا استيقظ مرعوباً لمجرد شعوري أني مكان؛ قد يهجره الآخرون.

نسيت أن أقول: وأنا عائد من عملي مساء بصحبة صديق، بلغنا كلباً بصلي اللون، بدأ ينبح.

قلت لصديقي: هذا الكلب يذكرني بالأماكن الطاردة، كلما التقيته، تكون عيناه الحمراوان شبه مغمضتين، وينظر إلي نظرة تعال ..

ضحك صديقي، ثم انفجر مقهقهاً عندما حاذينا الكلب، إذ رأى عينيه كما وصفتها، وقد ألقى علينا بتلك النظرة المستحقرة ..

قال صديقي: حتى الكلاب باتت لا تحتمل مرآنا، وتعاملنا برد فعل طارد.

*****

## أشد صناديق الفرجة خلوداً

مرتان أتى فيهما صندوق الدنيا ( الفرجة) إلى قريتنا.

المرة الأولى كانت صيفاً، آخر أيام البيادر، أذكر أني كنت أصغر من أن أتذكر، لكني لا زلت أفعل.

كنت ألعب خلف أمي، التي كانت تنظف تجاويف الصخر على بيادر "البومة" مما علق فيها من حبوب..

كنا أسرة معسورة، ولم أكن من الذين يعون معنى "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"، بل لشدة طفولتي؛ لم أكن أعي؛ إلا أني لن أحيا بغير الخبز الحاف الذي كان يشكل معظم وجباتنا اليومية، لدرجة أننا كنا إذا أحضر أبي مرة في طريق عودته من زحلة "خبز افرنجي" كما كنا نسميه، نأكله كغماس داخل عروس خبز التنور.

كانت أمي تحمل أكياس القنب، ومكنسة خشنة، وتقصد بيادر البومة، فتنكب على كنس أماكن العرمات، ومفردها عرمة، وهي

أحمال الدواب من قمح وشعير وغيرها، والتي كانت بعد أن تنقل من الحقول، تكدس فوق بعضها البعض كالكثبان، وقد أعدت ليدور فوقها نورج يجره حماران، تدريجيا بدءاً من الأطراف.

كانت بيادر البومة أفضل من سواها، لانها كانت من صفائح صخرية، فيها الكثير من الحفر الصغيرة؛ التي تحوي في تجاويفها كمشة أو زَور حبوب..

في مثل تلك الأيام تكون البيادر حدائق ألعابنا نحن الأطفال، الذين لحقنا بأمهاتنا إلى البيادر.

حيث كنا نختبىء خلف كومة تبن هنا، أو أكياس حبوب هناك..

كانت نساء الجوار تحرص على مرافقة أمي لهن، ليس ليتصدقن عليها؛ كوننا لم نكنْ نقيمُ عرمتنا كباقي أصحابِ الحقول الذين ما كنا منهم، بل لعذوبة صوتِها، فإذا غنت، اشتعلتِ البيادر زغاريدَ وإشاداتٍ وحنيناً.

وصل بائع الفرجة إلى المكان. أقام صندوقه فوق سيبته الرباعية السيقان، وراح ينادي:

" الفرجة بفرنك، الثلاثة بعشر قروش.. قرب تفرج على فارس الفرسان عنتر، راكب على الأبجر، بالساحة يتمختر.."

أذكر أن الأطفال، قد راحوا يتقاطرون أمام الصندوق، كل يحمل بثنية أسفل قميصه حبوباً؛ غربلتها أمه، وقدرت قيمتها بما يرضي بائع الفرجة.

رفضت أمي طلبي، ولم تمنحني ثنية..

لكني لم أكف عن إلحاحي، حتى وقفت في تلك القاطرة..

وكانت المرة الثانية أيام الدراسة، وكرد فعل على المرة الأولى، لم أتجرأ على الوقوف في القاطرة، فقد ظلت لحظة فراري بعد المرة الأولى، وقد صرخت مفجوعاً، وسط تضاحك النسوة والصغار، ثم هرعت إلى حضن أمي التي احتضنتني، وظلت تمسح دمعي، وشعري إلى أن غفوت، وقد حشرت حلمة صدرها في فمي، تكتم صوتي بالرضاعة، فقد تأخر فطامي أكثر من المعتاد، لأني كنت وحيداً على خمس فتيات، ظلت تلك التجربة تطاردني في أحلامي سنوات طوال.

ولا زلت إلى اليوم اتجتب ذكر ما كان في داخل ذلك الصندوق.

كبرت، وصار لدينا في بيتنا صندوق فرجتنا الخاص بنا؛ ذلك التلفاز الخشبي، ثم رحت أقصد المدينة. أدخل صناديق فرجتها (السينما) من فترة لأخرى، دون أن تغادرني تجربة صندوق الفرجة في بيادر البومة.

إلى أن دخلت صندوقاً؛ امتدت عوالمه في داخلي ولا زالت تتسع، منذ أن انطلقت بصوت أبي، كلما تمدد بعد عناء يوم متعب، وأخذ يلقي مرندحاً قصائد كان يحفظها.

ثم راحت صناديق الفرجة ترتص فوق بعضها البعض في مخيلتي، كلما قرأ معلمو المدرسة نصاً على مسامعنا، وقاموا بفتح مجاهله.

حتى أدركت مع نضج تجربتي في القراءة والاطلاع، أن أجملَ صناديق الدنيا وأشدَّها خلوداً هو الشعر.

ذلك الصندوق الذي لا تتكرر فرجته، وإن أدخلت رأسي في فتحة كمه القماشي الأسود ألف مرة في القصيدة الواحدة.

فالنص الشعري صندوق فرجة خالد، يأتيك من عوالم، وبعوالم؛ لم ولن تتوقعها أبداً، وأعذب ما فيه، أنك لست تضطر للتقاطر أمامه، ولن يجفلك ما فيه، ولا أبالغ إن قلت أنه قد يكون أمك التي احتضنتك، وراحت تمسح دمعك، وروحك، وتغرس بإصابعها حلمة ثديها؛ التي لن تجف في فم مخيلتك؛ التي لن تعرف الفطام أبداً.

*****

## رقع الجهل لا تستر عورة

كان أبي أمهر المرقّعين الذين عرفتهم في حياتي..

عندما أراد أن يبني بيتاً لنا، بنى غرفة، وبعد أن سكنّاها، أضاف إلى جانبها غرفة ثانية، فثالثة.

وهكذا. حتى بدا بيتنا كبيراً..

لكنه صار أشبه بكرتون البيض، وبات عبارة عن مجموعة وحدات، لا سبيل للدخول إلى أي منها، دون العبور ببقية الغرف..

وأنت لست بحاجة لتدخل بيوت قريتنا كلها، لتتعرف على تصاميمها الداخلية، بل يكفي أن تدخل بيتاً واحداً منها، والباقي مجرد نسخ؛ تتكرر تراقيعها وفي كل شيء داخلها.

فبابٌ ترقيع، وشباكٌ ترقيع، وطلاءٌ ترقيع، وتمديداتٌ الكهرباء والماء كلها ترقيع.

كذلك كانت أمي ترقيعيّة، لكنها لم تكن ماهرة، لأني لا زلت أذكر ملابس الطفولة؛ التي كانت الرقّع فيها أكبر من مساحة الثوب نفسه.

انعكست ثقافة الترقيع هذه على كافة حياة الناس في مجتمعات حكي تنور، فذا يرقّع دُيونه، وذاك يرقّع علاقاته، وآخر يرقّع دِينه بالصلاة من حين لآخر، وغيره يرقّع زواجه، وأسرته، وظروفه النفسية و...

ولا زلت أذكر بهلول القرية، كان يدخل التنور، ثم ينزوي محاذياً الباب، يجلس القرفصاء، بسرواله المفتوق بين فخذيه، فيتدلى عضوه الذكري، وتوابعه.

لينفجر ضحك النساء، وتعليقاتهن، وتنتشر في المكان همسات، وغمزات لا قبل لي بذكرها..

دون أن أدري وإلى اليوم: لمَ لمْ يفكّر ذلك المجتمع بترقيع ما ينبغي ترقيعه في سروال ذاك البهلول..

فقد كان مشهده محط تنادر الذكور، والإناث، كباراً، وصغاراً ..

ولم يكن مرد تقبله مكشوف العورة إلى وعي الناس بقيمة الجسد كفطرة بتاتاً، بل لأن مجتمع حكي تنور؛ اعتاد أكل لحم الضعيف نيئاً.

عندما مات المسكين في موقعه الذي ألفناه فيه فوق ركيزة صخرية عند إحدى جنبات الساحة، وهو متكىء على كوعه الأيمن، كان أول ما غطى الناس منه، ذلك الجزء الذي ظل بادياً قرابة خمسة عقود.

كبرت وأدركت أن عورة العقل لا رقعة تسترها ..

ولأنه كان بهلولاً، اعتقدَ مجتمعُ حكي تنور أن " لا عورة لمجنون

واكتشفتُ ألا عورة لمجتمع حكي تنور، لأنه لا عقل جماعي له، ينظم أموره..

والأمر متروك على هواه..

فالفرد في مجتمع حكي تنور يخشى عورته الشخصية، لكنه لا يبالي بعوراته المجتمعية.

لأنه مجتمع يتجنب الحقائق، ويوارب الأبواب عنها.

فيواري الفرد دملة متقيحة في جسمه، لئلا يتجشم عناء الإجابة على أسئلة الناس عنها، وهو وإن عالجها، ستصبح واحدة من الكِنيات التي سيكنّى بها: ( بو دملة )

فمجتمع حكي تنور لا يتقن علاج الدمامل، بل ويفضل ألا يفقيها.. من ( فقى دملته)

وهو مجتمع يصر وبشكل جماعي على ترقيع كل شيء، مهما كان تنافر الرقع فيما بينها فوق الثوب المرقوع، وهو مجتمع لا يعتقد بأن

" الثوب برقعته "

ملاحظة طارئة لا أحتمل تجاوزها، دون أن أذكرها هنا:

كانت لنا جارة طحنت رأس الجميع بالمثل القائل:

" ثوب العيرة ما بدوم، ولو دام ما بدفي "

لكنها لم تترك بيتا في القرية، لم تستعر منه ولو رشة ملح كما يقال!

فقد كانت كل حياتها "ترقيعاً بترقيع"

ولأننا مجتمعات لا تحكمها قوانين، ولا نظم، انسحب الأمر على السياسة، حيث أفرزنا أمهر الساسة المرقّعين محلياً، وعلى مستوى الدولة.

ولكثرة الترقيع أجزم أن ترقيع الوضع الوطني سيكون أشهر من حذاء الطنبوري في تاريخ البشرية ..

ذلك لأننا تركنا القرية تجتاح المدينة، وليس العكس ..

فانحسرت المدنية التي كنا بحاجة لها لبناء المؤسسات والنظم والقوانين، وانسحبت لصالح العائلات والعشائر التي قدِمَت إليها من الريف عبر الوظيفة عسكرياً ومدنياً بقيادات، لا تتقن إلا فن التفشيخ والترقيع.

فالبيت الذي بناه أبي لنا، كان النموذج الأبرز للبيت الوطني العام، الذي يعيق دخولك إلى أي بيت مؤسسي؛ دون أن تعبر كافة الغرف الطائفية، والحزبية، والعائلية، والتبعية المرقعة.

وانسحب الترقيع على كثير من الثقافة، والفنون.

لتجد كاتباً رقع كتابه بألف رقعة من كتب أخرى، لدرجة حجب عنك قماشه الأساس..

وتجد موسيقياً رقّع لحناً بعشرات الرقع من مشارق الأرض إلى مغاربها..

وتجد شاعراً رقّع قصيدة بعدة عبارات منحولة، وشخصاً رقّع فتقه النفسي ب " د." قبل اسمه عبر شهادة فوتوشوب أو أونلاين.

حتى صارت لنا مدن كاملة من الترقيع الذي يجعلك منذهلاً أمام تنامي مجتمع حكي تنور الرقعوي، والذي يكاد يبتلع كل شيء من حوله بالترقيع الذي ابتدعه.

وأذكر أن أبي قد تعطل عن العمل شهوراً، فاضطر الجلوس في البيت..

ولأن من طبع الذكر أن يتدخل في كل صغيرة وكبيرة، إذا لم يشغله عمل؛ صار أبي يتدخل في فرم بصلة الطبيخ إذا راحت أمي تعد الطعام..

كانت أمي ترقّع لي سروالاً، فراح أبي يتدخل في عملها من حيث لون الرقعة وخيطها، وموقعها من برا أم من جوّا. حتى تطور الأمر إلى جدل، فشجار، فتنازعا السروال فيما بينهما، حتى تمزق، وما عاد يستر عورة، ولا يصلح لأن يكون رقعة ترتق ما تمزق!

*****

## حذاء البيك والراعي وأنا

نادرا ما كنت أستطيع التمييز بين سروال أمي وسروال أبي الداخليين على حبل الغسيل، حين كانت تقول أمي:

" لِمْ الغسيلات، وطوي ثياب بيك ع جنب "

فكلاهما من الخام الأسمر، وكلاهما كان عبارة عن ثلاث مخدات، اثنتان عاموديتان، وواحدة أفقية؛ تشكل السَّرج من الأعلى..

ولكليهما حبل مجدول من الكتان، يسمى الدِكة، ومن هنا كان لا بد أن أطرح على أبي سؤال:

كم دفعت حق فكة الدِكة؟ !

في البداية كنت أظنها الدَّكة بفتح الدال، والتي تعني الطلقة أو الخرطوشة.

لكني بعد أن كبرت وصرت ألبس سروالاً بدِكة، أدركت أن المقصود هو الدِّكة، بكسر الدال.

وأذكر أن أبي أجاب، بأنه قد دفع حقها خمس ليرات، يوم كانت أجرته اليومية تساوي ليرتين ونصف.

ومن ثم أخبرني أن أمي قد أعادتها له.. ثم ضحك.. وفهمت لم ضحك..

عندما ماتت جدتي لجهة والدتي، وجدت أمي في صندوقها، ثلاثة سراويل نسائية، أرادت أن تأخذها لنفسها، غير أن أباها قال لها: دعيها سألبسها أنا!

كانت سراويل نساء القرية كلها تتكور بين أفخاذ النساء كالملفوفة.

وإلى اليوم لا أعرف إن كانت تلك الملفوفة مثيرة أم لا..

غير أن كل ملفوفة منها، كانت تخبىء تحتها وعلى الأقل عشرة أطفال صغار..

ضاقت بهم، فخرجوا، يشكلون عائلة ريفية، تملأ الحارات صراخاً، والأزقة عدواً، والليالي قصصاً لا تنتهي.

لم تكن أسرتي أقل من سواها، فقد كنا اثني عشر فرداً ننام في غرفة واحدة، هي غرفة الجلوس والاستقبال والنوم.
كذلك لم نكن من الأسر التي تتلقى الهدايا، بل كنا من تلك

الأسر التي تحرم نفسها شهوراً، لتجمع ثمن هدية، يلقيها مَنْ توددنا إليه بها في سلة المهملات؛ بعد مغادرة حاملها بقليل.

وكذا كان حال كل الأسر الفقيرة، لا تبلغ شيئا بلا ثمن يرهقها، على الرغم من أنه لا يلامس أبسط مشاعر المحمولة إليهم.

كنا أسرة تدفع ثمن محبة الآخرين من حرمانها وعرقها..

وقد كان هذا حال كافة أسر قريتنا، ولعله لا يزال.

يقضي أباؤها العام وهم يرددون على مسامع أولادهم:

– لا تمسوا هذه السلة، فهي لفلان.

– كلوا من هذا المرطبان، أما ذاك القطرميز، فلا تقربوا منه، لإنه لبيت فلان.

وهكذا يمر العام والأسرة منشغلة في تموين مطبخ فلان من "اللبنة المشفتة" كما كنا نسميها، والبيض البلدي، والكشك، والبرغل، والقاورما، والمخللات، والمكدوس، والزيتون، والعدس، والحمص، وغيرها..

وكل ذلك ضمن استراتيجية "قد نحتاج فلان في خدمة يوماً ما " ماتت أمي، ومات أبي، دون أن يأتي ذلك اليوم، لا بل إن ابن

فلان، لم يكلف نفسه مشقة الاتصال والتعزية بمن كان يدعي أنهما: "أنكل وتانت "

قلت لأبي: لقد تغربنا جميعنا، ذكوراً وإناثاً.

ولم نحتج من فلان أي خدمة، وما كانت كل تلك الهدايا إلا على حساب تعليمنا وحاجاتنا..

فأجاب يائساً: كله رايح..

ونادراً ما كان أبي ييأس، لأنه فلاح عنيد.

أذكر، أني كنت فتى يوم تجمع عدد من أهل القرية لاستقبال البيك في منزل قريب من آخر الزفت، ذلك لئلا يضطر سعادته للمشي في الأزقة الترابية، ويوسخ حذاءه ( مشايته) كما كنا نسميها..

خلع الجميع أحذيتهم في عتبة البيت المضيف، ودخلوا، فقد كان الطقس ماطراً، وتوزعوا في المجلس بانتظار البيك.

وطلبوا مني الوقوف خارج الباب، تحت البرندة، لأعلمهم بوصله؛ إذا ما أطلت سيارته من بعيد.

وقفت متحمساً متباهياً بمهمتي، حتى لمحت سيارة سوداء قادمة..

فتحت الباب، وهتفت منفعلاً.

وصل البيك.. وصل البيك!

اصطف الجميع بوِقفة عسكرية، وقد اشرأبت وجوههم استبشاراً بالخير لاستقباله.

توقفت الكاديلاك السوداء، ونزل منها من فتح له الباب، وقد رفع المظلة فوق رأسه، ثم نزل وخطا صوب الباب..

لم يكن البيك ذكياّ، لكن أهلي كانوا أغبياء.

فعندما لمح الأحذية في العتبة، خلع حذاءه، ودخل، وسط رفض الحضور وإلحاحهم بضرورة الدخول بحذائه "فالسجادة ما بتغلى على البيك "

لكنه تمكن بإصراره من السيطرة على الموقف.

بعد أن جلس، وشرح للحاضرين أنه لن يطيل الجلوس فيما بينهم، لضغط الأعمال، انهالت عليه المطالب الصغيرة التي تليق بمحتاجيها، فتناول قلمه، وأخذ يدون على غلاف علبة سجائره الاسم والطلب، حتى امتلأ غلاف العلبة، فأشعل آخر سيجارة كانت في العلبة، ووضعها في جيبه.

هتفت امرأة في الخارج من بعيد، تنادي زوجها، والذي كان معّازاً، وقد كان مسكيناً، شحيح النظر، أعشاه، يلبس نظارة تحطمت إحدى زجاجتيها السميكتين، فربطها خلف رأسه بمطاطة، لئلا تسقط ثانية، فتتكسر الزجاجة الأخرى.

ولما علا الهرج في الجلسة، بسبب إحدى نداءات زوجته التي قالت:

"تعا يا عمي، تعا... العنزات ابقى لك من هالبيك"

نهض الرجل ساباً، لاعناً النسوان وساعتها، وخرج يغادر المكان، مخلفاً وراءه ضحك البيك الذي كان يُحفّز الجميع على الضحك.

بعد دقائق نهض البيك ليغادر، سلم، ووقف في العتبة، يبحث عن حذائه فلم يجده..

وانهمك الجميع بالبحث عن حذاء البيك، وقد داهمهم الإحراج.

تنبهت أنا لبقاء حذاء الراعي، وقد غاب حذاء البيك.

فلفتت انتباههم للأمر، فطلبوا مني اللحاق به لاسترجاع الحذاء.

انطلقت أجري، حتى وصلت بيته.

سألت عنه زوجته، قالت لي:

"طلع لعند العنزات، الصبي ساخن، تركهم بين القلعات وإجا"

قلت لها: والحذاء؟!

فردّت: أي حذاء؟!

فاستدرت عائداً، أجري..

وصلت مكان الاجتماع، وقد بللني المطر، وأخبرتهم بما حصل..

فما كان من البيك إلا أن انتعل حذاء الراعي، وتوجه إلى سيارته منزعجاً، تاركاً لأهلنا توجسهم، والشتائم، واللوم، ومشاعر الخيبة، والجرصة.

استدارت السيارة، وانطلقت عائدة من حيث أتت..

فيما بقيت أنا أراقبها، فلمحت شيئاً؛ تطاير من نافذتها بعد انطلاقها بعدة أمتار..

ركضت أبحث عما سقط من السيارة، فإذ به حذاء الراعي، وعلبة السجائر التي ثنتها كف البيك قبل إلقائها.

حملت الحذاء الذي كان موحلا، تفوح منه رائحة بعر الماعز بيد، وعلبة السجائر بالأخرى، وعدت، إلى المجتمعين.

وضعت الحذاء مكانه، ورحت أقوّم علبة السجائر، وأقرأ ما كتب عليها.

ثم دخلت، وأخبرتهم بما حصل، ومددت علبة السجائر إلى صاحب البيت المضيف..

وهنا انقسم أهلي إلى قسمين، قسم يبرر أن البيك نقل المعلومات إلى مفكرته التي يحتفظ بها في حقيبة السيارة، وقسم يسب، ويشتم الراعي الذي أودى بأحلامهم.

وفجأة فجّر أحد المدافعين عن البيك غضبه بي، يحملني مسؤولية ما حصل، ويقول:

- وإنت يا سعدان... شو ركضك تجيب العلبة، وليش كنت ع بتراقب البيك، وليش ما تشاطرت ونبهت الراعي إن هذا مش صباط"

وصار يرعد ويزبد..

حتى شعرت بأني أنا الذي حطمت مستقبل القرية كلها..

تغيرت سراويل أهل القرية الداخلية، وتغير قماشها، وأسماؤها، وباتوا يسمونها كيلوتات، وبوكسرات، وانتشر مشهد كيلوتات السترنج على حبال الغسيل فوق الأسطح..

غير أنه وإلى اليوم؛ لا زال ذاك الراعي هو هو، والبيك هو هو.

ولازال تنورنا يحمّلُ ذلك الراعي مسؤولية تردي أوضاع القرية، وازدياد نسبة البطالة والفقر فيها.

*****

## البلدي أفضل

لا شيء يؤرق كعلاقة الإنسان بالسماء.

ولن أقول الأرض..

ولأن الوعي هو الذي يحدد تلك العلاقة..

يجد المبحر في سر تلك العلاقة تفاوتاً ضخماً بين بيئة وأخرى في مسألة ترجمة أو توصيفها..

تعتقد بيئات حكي تنور أن علاقتها بالسماء أصح من علاقة بيئة ما هنا.. أو هناك في مكان ما من العالم.

فتجد أفرادها قد جلسوا، وأمسكوا بمقايس موروثهم ومعتقدهم وماضيهم المقدس، وأخذوا يحاكمون، ويقيمون، وينتقدون موروث ومعتقد بيئة أخرى في مكان ما من العالم؛ مشفقين عليها، متأسفين لحالها..

شاكرين حامدين على ما هم فيه من نعم!

ويعتقد الفرد من بيئتنا أنه يملك الحقيقة التي تسمح له بالسخرية من بيئة تقدس جرذ الفأر، أو البقرة، أو حجراً منحوتاً، أو جداراً لا يتحرك.

وإنما يُقيم كل تلك المحاكمات اعتقاداً منه أن غياب الطاقة، أو

الفكر، أو الحياة في تلك المعتقدات البهيمة الغشيمة، يسقط عنها قدسيتها، ويدين العقل المكرس لذلك الاعتقاد، خاصة وأنها ملتصقة بالأرض، ولا يفصلها عنها فاصل.

غير أن هذا الفرد في مجتمع حكي تنور، يقدس معتقدات، ويقوم هو نفسه بممارسات، لا تختلف بتاتاً عن ممارسات تلك البيئات التي يحاكمها.

والتفاوت في النظرة إلى مقدس أو معتقد، لم ينجح حتى اليوم في خلق تفاوتات في السلوك البشري تجاه العنف والغضب والكراهية، والحقد والجريمة والحرب.

فالفأر الإله هناك، والذي هو في الوقت نفسه من الفواسق الواجب قتلها هنا، والبقرة المخلّصة هناك، والتي هي في الوقت نفسه وجبة طعام هنا، والجدار المقدس هناك، والذي هو عندنا ملاذ لتبول الذكور ليلاً، وعند الضيق، كل هذه التناقضات تؤكد أن فكرة.

"البلدي أفضل وأنظف وأطيب وأكثر صحي "

هي القاعدة الأولى لكل منطلقات التفكير، التي تشكل الخبرات، التي بدورها تنتج المعرفة، التي تشكل الذاكرة التي تؤثث الفكر الفردي والمجتمعي..

ولأن فكر حكي تنور هو الذي لا زال يحركنا منذ قرون.

كان أبي يؤكد لنا أن البيض البلدي أطيب وصحي أكثر.. وكذلك اللحم، والخضار، والرغيف والهواء والتراب، و..

سألت أبي مرة: لماذا برأيك البلدي أطيب؟!

فاسترسل، وحكى، وحكى عن البلدي ومواصفاته..

وبقيت في صمتي أقيم الأمر على قاعدة:

"ذاك حصرم رأيته في حلب"

وبعد أن أخبرني كل شيء عن أفضلية البلدي، سألته: حتى الفَرْج البلدي؟!

فصمت قليلاً، ثم قال: إلا هذا..

قلت له: لماذا ؟!

فراح يشرح لي الفرق بين الفرج البلدي والفرج الأجنبي، مبرراً ميزة الأجنبي بفضل الحرية، والملبس، والوعي، والنظافة، والتطور، و و ...

ولأربط هذا بموضوعنا الأساس، أرى أن ما في عقل مجتمع حكي تنور، له أولوية تتناقض مع ما خارجه..

فقدسية العقل تنفصل في فكر مجتمع حكي تنور عن سواها.

وعوداً على إدانة مقدس الآخر لعدم جدواه، فإننا نمارس طقوسه نفسها التي أسست لتجارب عقلية بلدية، كونت معارف بلدية،

أنتجت ذاكرة بلدية، شكلت فكراً بلدياً، يقوم على الدعاء والدعاء ولا شيء أكثر، ثم انتظار المقدس الغيبي، لابداء رأيه، وحل المشكلة. وبالتالي خلق هذا المجتمع مشكلاته الفكرية، ثم عاد يعمل على حلها بأدوات فكرية أصلها في عقلية حكي تنور التي أنتجت تلك المشكلات..

لذا كلما تفكرت في لائحة مطالب الإنسان التي يرفعها بشكل يومي إلى السماء، تخيلت حال الفريق المكلف بفرزها، وتصنيفها، وجدولتها للتنفيذ.

وإن أتت الحلول لا تحمل حلاً، بدا الاثنان راضيين. وأقصد السماء والإنسان.

وتذكرني علاقة الإنسان بالسماء بأمي رحمها الله

فقد كان أبي صاحب نخوة، وكان بيتنا خالياً، "يلعب الفأر فيه" كما يقال.

وكان من عادات بيئتنا في المناسبات، أن يحضر مشاركون من خارج القرية، فيتقاسم رجال القرية أولئك الضيوف..

فيأتي أبي بعد عزاء أو فرح بخمسة إلى ستة رجال، ويصدح من باب البيت المكون من غرفة تراب بأمي..

– يا فاطمة.. حطي لقمة من المتيسر!

وكان المتيسر في بيتنا أيامها لاشيء!

فتدخل أمي مطبخنا الذي كان عبارة عن زاوية خلف باب بلا باب، كل أدواته من الألمينيوم، وتبدأ بطرطقة الطناجر والصحون، وشقلبتها فوق بعضها البعض.

ثم تدخل، وتخرج، وتتشاغل، ولا شيء في المطبخ إلا صوت البابور، وقرقعة المواعين الفارغة..

هذا هو حال علاقة الإنسان بالسماء في مجتمعات حكي التنور.

يوجه الرسائل يومياً، وينهي مهمته بذلك، ثم يجلس ينتظر.

وقد يظل البابور مشتعلاً إلى أن ينفذ كازه.

وقد يغادر الضيوف، ومعهم أبي الذي لا يكف عن نخوته غير المجدية.

وقد تظل أمي في عجزها تداري خيبتها، وتقرقع بطناجرها الفارغة التي لن تنتج ما يسد الجوع.

*****

## آخر النصوص

كنت إذا غنت أمي، أَحْتَلِبُ الدمعَ من عُرَب صوتها الأبيض.

لم تكن تعرف إلا سلم سطح بيتنا الخشبي..

كانت تصعده بإيقاع، يتردد عن أخمص قدميها الحافيتين.

كانت قدماها تبارك الأرض تحت وقوفي.

تنشر فوق السطح شرائح البندورة، والباذنجان، والفليفلة الخضراء، والزبيب، كما لو أنها تكتب نوتة موسيقة على خطوط ريفيتها المشبعة حباً وحياءً.

كان سطح بيتنا لوحتها التي ما خضعت للمزاد العلني بتاتاً، لأنها كانت ترسمها، لترى فيها أطفالها الذين تنتظر.

كانت دندناتها أول أَسِرَّة السلام التي حملتني قبل الولادة وبعدها..

لأني كررت عليها السؤال أكثر من مرة، وفي أكثر من مناسبة:

- هل كنت تغنين حين كنت جنيناً في رحمك؟!

فتقول: كنت أشعر طوال فترة حملي بك، أن نفسي فاتحة على الغناء، ولا أذكر أني غنيت في حملٍ، كما فعلت أثناء حملي بك.

ثم تغمرني بقوة، وتترك دمعها، يشعل حبها.

لأشعر بانقباض، لم أدرك سببه إلا يوم دخلت عليها وهي توضب حقيبة سفري..

وقد كنت في الخامسة عشر من عمري، وفي طريقي إلى بغداد بهدف الدراسة.

لم تكن تغني..

كانت تئن فقط..

لا أحتمل سرد مشهدية توضيبها للملابس، لأنني قد أنهار..

ولأن الأهم هو هذا النص الذي أظنه إبداعيا..

أذكر أنها وقفت أمامي..

مسحت بيمينها على خدي، دون أن تعانقني، وغنت:

" أولوا لعين الشمس ما تحماشي

دحسن حبيب الألب صابح ماشي"

ثم اختنقت، وغادرت الغرفة..

كنت في أماسي بغداد البعيدة، أخفي رأسي عند النوم بمنشفة، عطرتها أمي بصدرها، الذي ظل حليبه على أطراف لساني، لأرتشف صوتها ودمعها، دون أن يشفق علي أحد.

عندما ماتت أمي، عدت من السفر قبل دفنها بساعات، خلعت رجولتي خارج الباب، وخطوت صوبها طفلاً، ما غادر البيت قط.

وقفت فوق رأسها. نظرت طويلاً.

ثم أعدت غناء ما ودعتني به.

يومها، أدركت لم كانت أمي تغني لي؟!

فبعض الدمع، ليست مصدره العيون..

كانت تعرف وهي الأمية، أن الإنسان لا يغني؛ إلا إذا أخافه الفراغ.

كانت تشغل نفسها بمهام البيت، والأسرة، وتربيتنا، تربية الماشية والدجاج، وزراعة الورود، والحب، والأمل فينا، دون أن تتوقف عن الغناء.

كانت تعلف حيوانتها، وتغني، وتحممنا وتغنّي، وتحصد بالأجرة، وتغني..

لم تكن تتوقف عن الغناء إلا إذا داهمها البكاء.

كانت تغني، لتطرد الفراغ الذي كان يحتلها..

كانت تعرف أن من تغني له أكثر، سيبتعد أكثر، وربما لن يعود..

لذلك قلت في روايتي "سوق الملح":

" لا يحق لمن غادر منزل أمه بقلب يافع ، أن يرجع؛ ليزور قبرها بقلب حطمته الغربة"

*****

عمر سعيد

أسطنبول- إيسينيورت- فبراير 2021

***ملاحظة:** أضفت هذا النص هنا لئلا يخفيه الوقت. فقد نشرته في مجلة العربي الكويتية، سنة 2009، ضمن سلسلة قصص قصيرة على الهواء بالتعاون مع إذاعة بي بي سي بالعربية، وحصل على جائزة، وتمت ترجمته إلى عدة لغات.

## الجاموس وطائر الإوز

ورد جاموس إلى بحيرة، وأنزل رأسه يشرب، فلفت انتباهه انعكاس لسرب أوز في صفحة الماء!

رفع رأسه؛ ليرى قدوم السرب المنتظم في شكل 7، فرآه يحط عند ضفة البحيرة.

تقدم الجاموس من طيور الأوز، و سأل أحدها:

– أتنتقلون دائما؟

رفع طائر الأوز رأسه؛ يشكر الله بعدما ارتوى، وأجاب الجاموس:

– نحن نتبع تقلبات المناخ، و نقصد الدفء حيث يحل.

عاد الجاموس يسأله:

- و لكن لمَ تطير أسرابكم دائما على شكل 7 ؟

فرد عليه طائر الأوز قائلا:

- وكيف تسير قطعان الجاموس ؟

- نحن نتبع قائدنا، والمعروف عنا أننا قطعان مطيعة سهلة القيادة، فلا همّ للقطيع إلا اتباع القائد إلى حيث يريد، من دون اهتمام بطريق الانتقال، أو السير.

وردّ طائر الأوز مستغرباً:

- كل همكم أن تتبعوا القائد إلى حيث يريد، و لا تأبهون لطريقة السير؟!

- أجل نحن لا نأبه سوى لطاعة قائد القطيع، وأنتم؟

- نحن نتبادل قيادة السرب في ترحالنا.

- هل يعنى هذا أن كل طيور الأوز تستطيع قيادة السرب؟

- طبعا.

- وكيف ذلك؟

- الأمر بسيط، يتدرب الفرخ منا منذ بزوغ الزغب في جناحيه على القيادة الذاتية.

– وما حاجتكم إليها؟

– إذا لم يتقن طائر الأوز القيادة الذاتية؛ فلن يتمكن من الطيران في سربه على شكل 7.

– هذا يعنى أنكم لا تتمتعون بالحرية في طيرانكم!

– إن كانت الحرية تعنى الفوضى، فنعم، واعلم أن الطائر منا واحد من جماعة لا يتحقق وجوده إلا بها، ولا تكتمل الجماعة إلا به، فإن تكاسل الفرد من القيادة الذاتية؛ نتج عن ذلك خلل في نظام الجماعة، وقد لا يبلغ السرب رحلته التي يجتاز خلالها مسافات شاسعة.

– إن حياتكم لا شك صعبة؛ لأن النظام يخلق التعقيدات.

– أظن أنكم أنتم الذين تواجهون الصعوبات!

– و لم؟

– ألستم أنتم سكان الأرض أحوج إلى النظام؟

– وما حاجتكم إلى النظام أنتم ولكم السماء ورحابتها؟

– نحن نحتاج النظام في طيراننا؛ لأننا نظن أن السماء ليست لنا وحدنا!

- فهل تعيش قطعان الجواميس وحدها في هذه الأرض؟

- طبعا لا. فهناك مخلوقات أخرى كثيرة، ومتنوعة.

نظر إليه طائر الإوز بدهشة؛ وطار يكمل التشكيل 7 في سربه الذي راح يحلق عالياً.

و منذ أن سمعت ما دار بينهما، وأنا أسأل نفسي:

" أمن الجواميس أنا، أم من الأوز؟! "

الرياض 2009

## الفهرس

## الفهرس

**عمر سعيد**

روائي لبناني ، يحمل ماجستير في الفنون المسرحية.

صدر له :

1- لم تكن إيموزار لكنها كانت عن دار العودة

2- ما عدت أنتظر الشتاء ، فلا أنت تأتين ولا المطر عن دار الفارابي

3- سوق الملح .

4- حكي تنور

facebook.com/omar0chebli

Email: zorba.chebli@gmail.com

Tel: +96176683831

# حكي تنور

عمر سعيد



كنت ألعب خلف أمي، التي كانت تنظف تجاويف الصخر على بيادر "البومة" مما علق فيها من حبوب..
كنا أسرة معسورة، ولم أكن من الذين يعون معنى "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"، بل لشدة طفولتي لم أكن أعي إلا أني لن أحيا بغير الخبز الحاف الذي كان يشكل معظم وجباتنا اليومية، لدرجة أننا كنا إذا أحضر أبي مرة في طريق عودته من زحلة "خبز افرنجي" كما كنا نسميه، نأكله كغماس داخل عروس خبز التنور.
كانت أمي تحمل أكياس القنب، ومكنسة خشنة، وتقصد بيادر البومة، فتنكب على كنس أماكن العرمات، ومفردها عرمة، وهي أحمال الدواب من قمح وشعير وغيرها، والتي كانت بعد أن تنقل من الحقول، تكدس فوق بعضها البعض كالكثبان، وقد أعدت ليدور فوقها نورج يجره حماران، تدريجيا بدءاً من الأطراف.
كانت بيادر البومة أفضل من سواها، لانها كانت من صفائح صخرية، فيها الكثير من الحفر الصغيرة التي تحوي في تجاويفها كمشة أو زور حبوب..
كان نساء الجوار يحرصن على مرافقة أمي لهن، ليس ليتصدقن عليها كوننا؛ لم نكن نقيم عرمتنا كباقي أصحاب الحقول الذين ما كنا منهم، بل لعذوبة صوتها، فإذا غنت، اشتعلت البيادر زغاريد وإشادات وحنينا.



